جون شتاينبك

《الحائز على جائزة نوبل لعام 1962》

اللؤلؤة

رواية



ترجمة: يوسف إبراهيم الجهماني

• اللؤلؤة/ رواية

• جون شتاينبك

• ترجمة: يوسف ابراهيم الجهماني

• الطبعة الأولى: 1999.

• دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا ـ دمشق ـ هاتف: 6713079

ص.ب: 32105

جون شتاينبك

«الحائز على جائزة نوبل لعام 1962»

اللؤلؤة

رواية

ترجمة: يوسف إبراهيم الجهماني

جون شتاينبك

ولد جون شتاينبك عام 1902 في ساليناس، كاليفورنيا. درس مادة علم الأحياء البحرية في جامعة ستانفورد، لكنه توقف دون أن يحصل على الشهادة. وعلى إثر فشله في ممارسة بعض الأعمال الوظيفية، آب إلى كاليفورنيا لامتهان الكتابة في كوخ معزول.

تبوأ عمله "عناقيد الغضب" مكانة هامة في الأدب الأمريكي.

من أعماله: "شارع السردين المعلب"، "الحافلة المتنقلة"، "شرقي عدن"، "رحلات مع شارلي" و"أمريكا والأمريكيون".

حاز على جائزة نوبل عام 1962، وأصبح بهذا الأمريكي السادس الذي يحوز على هذه الجائزة للآداب. ومما جاء في شهادة الأكاديمية السويدية عن شتاينبك: «... لم يكن ليمانع في أن يكون مسبباً للقلق والإزعاج، دون أن يشعر بالذنب، في الوقت الذي كانت فيه الموضوعات التي اختارها لمعالجاته الروائية جادة واتهامية...».

توفي جون شتاينبك في منزله في مدينة نيويورك في كانون الأول/ ديسمبر عام 1968.

1

استيقظ كينو في آخر موجات الليل. لا تزال النجوم تشع، والنهار كان قد رسم حزمة شاحبة فقط من الضياء على أسفل السماء، من الشرق. صاحت الديوك لبعض الوقت، وأخذت الخنازير تجرب في تقليب الأغصان وقضم الأخشاب، في محاولة منها للعثور على أي نوع من أنواع المرعى. وخارج الدغل، انتصب منزل بين أجمة من الأشجار، وكان هناك سرب من الطيور الصغيرة تثرثر وهي تتمادى فاردةً أجنحتها في عباب السماء.

شرَّع كينو عينيه، مسلطاً نظرة، بادئ ذي بدء، على تلك الجهة المضيئة، حيث الباب، وبعدها ألقى نظرة إلى صندوق معلق، كان يضم كوواتيتو نائماً. وأخيراً أدار رأسه باتجاه زوجته، جوانا، حيث كان شال أبيض يلف أنفها ونهديها ومؤخرتها الصغيرة. كانت عينا جوانا يقظتين أيضاً، اللتان لم يتذكر كينو أنه رآهما مغمضتين أبداً، في الأوقات التي كان فيها يستيقظ. شاهد كينو انعكاساً لصور النجوم في عيني جوانا السوداوين، حيث كانت تنعم النظر إليه، كعادتها في الصباحات السابقة، إثر ما يُشرع عينيه لاستقبال يوم جديد.

أخذ كينو يسمع النضوح الصباحي الخافت لأمواج الشاطئ. يا لها من روعة. أغلق كينو عينيه ليسعد سامعَيه بهذه الموسيقى. قد يكون هو الوحيد، الذي يسلك هذا السلوك، وقد يكون هذا السلوك عاماً عند أبناء قومه. مَثل أبناء قومه الأوائل صناعاً عظاماً للأغاني، لذا فإن كل شيء شاهدوه أو فكروا به أو صنعوه أو سمعوه، قدموه على طبق من الأغاني. جرى هذا منذ أمد بعيد جداً. ترسّخت أغنيات

كثيرة، حفظها كينو، إلا أنه لم يُضف إليها حديثاً أية أغنية تذكر. وهذا لا يعني بالتأكيد أنه ليس هناك أية أغاني شخصية، كان يدندن بها، ففي رأس كينو الآن تصدح أغنية، واضحة وناعمة، وإذا أصبح قادراً على ترديدها، لكان قد أطلق عليها "أغنية العائلة".

كان الدثار ملقى فوق أنفه لحمايته من الهواء الشديد الرطوبة. قفزت عيناه باتجاه صوت لحلحةٍ، حدثت بقربه. أتى صوت هذه اللحلحة من حركة نهوض جوانا، الذي كان عادة يتم بهدوء وصمت مطبقين! مشت جوانا على قدمين حافيتين باتجاه الصندوق المعلق، حيث ينام كوواتيتو، وانحنت فوقه مرددة بضع كلمات مطمئنة. بحلق كوواتيتو عالياً برهة من الزمن، ثم أطبق عينيه وغط في النوم ثانية.

اتجهت جوانا باتجاه حفرة الموقد، وأماطت اللثام عن الحطب المغطى بالرماد، وهوّته لتعيد له الاتقاد، ريثما تقوم بإحضار بضع قطع من الأغصان لتلقيها فوقه.

في هذه اللحظة، نهض كينو دافعاً عن رأسه وأنفه وكتفيه الدثار. دفع قدميه في صندله واتجه لمراقبة بزوغ الفجر.

خارج الباب، انحدر قليلاً، وقرفص لافاً الدثار حول ركبتيه. شاهد كينو لطخات توهج سحب الخليج، وهي تسبح في أعلى نسيم الهواء. دنت منه مِعزاة بازدراء، تشممته وبحلقت فيه بعينين باردتين صفراوتين. وإلى الخلف منه كانت النار، التي أضرمتها جوانا، قد اتقدت وتسربت أشعتها، إلى خارج المنزل، عبر شقوق جدران البيت المبني من الأغصان. واندفعت فراشة إلى الداخل بحثاً عن الدفء، كما بدأت أشعة عث "أثاث" المنزل تتهادى باحثة عن النار. عندها بدأت "أغنية العائلة" تصدح إلى الخلف من كينو. وكانت نغمات هذه الأغنية، تأتي من خلال حجر الرحى، الذي كانت تعزف عليه جوانا لتجرش الذرة لإعداد كعكات الصباح.

بروغ الفجر السريع ، اصطخاب الأمواج، الشروق، وبعدها فرقعات النار، في وقت كانت فيه الشمس تصعد فوق الخليج. في هذا الوقت، أسدل كينو جفنيه وحنى رأسه إلى الأسفل، لحماية عينيه من الوهج. كان يستمع إلى الرَبت على عجين الذرة في المنزل ويستنشق عبق رائحة كعكاته الزكية، الصادرة من سطح الفرن. كانت النملات، الكبيرة ذات الأجسام المشعة والصغيرة المغبرة السريعة، تتهادى على الأرض، بادياً عليها الانشغال. راقب كينو بحياديةٍ، مشهداً، أخذت فيه نملة مغبرة تحاول باهتياج شديد الهروب من مصيدة رملية، كان قد نصبها لها أسد نمل. دنا كلب هزيل، وبكلمات ناعمة من كينو، استدار الكلب جاراً ذيله بين ساقيه، وعند كومة الحطب، لطا مُستنداً بذقنه عليها. كان كلباً أسود اللون، بانت عليه بقع صفراء مذهبة، فيما بين قوسي عينيه. كان صباحاً كغيره من الصباحات، لكنه تميز بروعته عنها.

سمع كينو صرير حبل، من حيث كانت جوانا ترفع كوواتيتو من الصندوق المعلق، آخذةً بتنظيفه ولفه بشالها، صانعة من الأخير أنشوطة، أمسدتها قريباً من صدرها. كان كينو يتصور مشاهد هذه الحركات، دون إلقاء نظرة عليها. غنّت جوانا بعذوبة أغنية قديمة، مؤلفة من ثلاثة مقاطع فقط، كانت تصدح بكل منها بعد استراحات موسيقية قصيرة. وهذا كان جزءاً من "أغنية العائلة" أيضاً. كانت أحياناً تُرفع النغمة لدرجة تُؤلم الحلق، مرددةً هذا هو الأمان وهذا هو الدفء، وهذا هو كل شيء.

كانت هناك منازل دغلية أخرى داخل السياج الدغلي، تصدر عنها ألسنة من الدخان أيضاً، وأصوات الإعداد لطعام الإفطار، إلا أن الأخيرة كانت تعبر عن أغان أخرى مختلفة، وخنازيرهم كانت مختلفة، والنساء فيها لسن كجُوانا. كان كينو شاباً قوياً، وشعره الأسود طويلاً مسدلاً على جبينه البني اللون. عيناه دافئتان ثاقبتان مضيئتان، وشاربه رفيعاً خشناً. وأخيراً نزع الدثار من فوق أنفه، لأنه

شعر باختفاء رائحة الهواء السام، ولأن أشعة الشمس الصفراء أخذت تتساقط على المنزل. وبالقرب من السياج الدغلي، تظاهر ديكان مقوسا الظهر بممارسة هجومات خداعية، أحدهما ضد الآخر، مستخدمان أجنحتهما ورقبتيهما، الأمر الذي جعل ريشهن منتفضاً. بدا هذا القتال كقتال غير بارع. إنه لم يكن قتال ديكة حقيقي. راقب كينو هذا المشهد برهة قصيرة، ومن ثم قفزت عيناه لتراقبا طيران سربٍ من اليمام يتلألأ، منطلقاً من دغله قاصداً الهضاب. بعد أن استيقظ العالم، نهض كينو ودلف إلى منزله الدغلي.

في اللحظة التي اجتاز فيها كينو عتبة المنزل، نهضت جوانا عن جورة النار. أعادت كوواتيتو إلى صندوقه وأمسكت بشعرها لتصنع منه جديلتين، رابطة نهايتيه بشريطتين خضراوتين رفيعتين. جثم كينو بالقرب من الموقد والتقط كعكة ذرة ساخنة وغمسها بالصلصة وأخذ يقضمها، وشرب بعد ذلك، قليلاً من البَلْكة*، وكان هذا كل ما يعرفه، عما يسمى وجبة الإفطار. كانت هذه وجبة الإفطار الوحيدة التي كان يعرفها، ما عدا تلك التي يتناولها في أيام الأعياد، وتذكر أنه في أحد المهرجانات الفظيعة أكل كعكات حلوة، كادت تقتله، وواحدة أخرى في عيد القديسة فيستا (Fiesta)**. عندما انتهى كينو من تناول وجبة الإفطار، عادت جوانا إلى الموقد وتناولت إفطارها. وإذا تبادلا خلال ذلك بضع كلمات، فإن العادة كانت تقضي بالصمت. تنهد كينو تنهيدة تنم عن معاناة. وكان هذا هو دور كينو في الحديث.

أخذت الشمس تلقي بدفئها على المنزل الدغلي، مخترقة شقوقه بخيوط ضوئية طويلة. وإحدى هذه الخيوط أسدل أشعته على

---

* البَلْكة: شراب مسكر، يصنع في المكسيك من الصبار الأمريكي ــ المترجم.

** Fiesta : عيد قديس، يُحتفل به في أسبانيا وأمريكا اللاتينية بالمواكب والرقص ــ المترجم.

الصندوق المعلق، الذي كان كوواتيتو مضطجعاً فيه، وعلى تلك الأحزمة المعلق بها.

كانت برهة قصيرة تلك التي سلّطا فيها أعينهما على الصندوق المعلق. تجمد كل من جوانا وكينو في مكانيهما. فأسفل الحزام، الذي كان الصندوق المعلق مربوطاً فيه بدعامة السقف، شاهدا عقرباً يمشي الهوينا، وكان يجر ذنبه المستقيم خلفه، وفي لحظة كالبرق، كان يمكنه أن يسوطه.

في هذه اللحظة، صفر الهواء في منخري كينو، الأمر الذي جعله يفتح فمه واسعاً ليوقفه. وبعدها غابت عنه نظرة الرعب، وغادره التوتر الذي اجتاح جسمه. في هذه الآونة، ترامت إلى ذهنه أغنية جديدة، أغنية الشيطان، موسيقى العدو، لأي عدو من أعداء العائلة، المتوحش، الغامض، الميلوديا الخطرة، قادمة من الجحيم. وتحت هذه الطبقة، أخذت "أغنية العائلة" تصدح بشجون.

تحرك العقرب برهافة إلى أسفل الحزام باتجاه الصندوق. وتحت عبرات أنفاسها، كانت جوانا تكرر دعوات أسطورية سحرية قديمة، تتوسل للحماية من أضرار مثل هكذا شيطان. وفي قمة توسلاتها هذه أخذت تستنجد بمريم العذراء وهي تصك أسنانها. إلا أن كينو كان متحفزاً. أخذ جسده ينسل بهدوء عبر الغرفة، بخفة وصمت مطبق. ذراعاه كانت في مقدمة الجسد، وراحتاهما إلى الأسفل، أما عيناه فكانتا تبحلقان بالعقرب. دون ذلك، كان كوواتيتو الصغير يضحك ماداً يده محاولاً بذلك أن تصل إلى حيث العقرب. أما العقرب فقد شعر بالخطر، عندما أخذ كينو بالاقتراب منه، لذا توقف ورفع ذنبه عالياً عن مؤخرته وهزه عدة هزات صغيرة، وأخذت الإبرة المقوسة تتلألأ في نهايته.

وقف كينو متجمداً، وشعوذات جوانا القديمة تصل إلى أذنيه، في الوقت الذي كانت فيه الموسيقى الشيطانية، بنت العدو، تتخلل ذلك. لم يجرؤ كينو على الحركة، قبل أن باشر العقرب بها، معطياً

شعوراً كأن الموت داهم إليه. اتجهت ذراع كينو إليه ببطء شديد، وبهدوء منقطع النظير. أخذ الذنب ذو الإبرة ينتصب. وفي تلك اللحظة هز كوواتيتو الباسم الحزام، وسقط العقرب. حاولت قبضة كينو الإمساك به، إلا أن العقرب تهرب من بين أصابعه ساقطاً على كتف الطفل وأدخل إبرة ذنبه في لحمه الغض. ومن ثم التقطه الغاضب كينو، وعركه بأصابعه وراحة يده محولاً إياه إلى عجينة، ثم رماه أرضاً، في وقت كان فيه كوواتيتو يصرخ من الألم في صندوقه. إلا أن كينو على الرغم من سحقه العدو، كانت أسنانه تصطك والشرر يتطاير من عينيه، في وقت كانت فيه أنغام أغنية العدو تزأر في أذنيه.

والآن، أصبح الطفل بين ذراعي جوانا. عثرت على مكان لدغة العقرب، الذي كان شديد الاحمرار. قررت بأنه لا بأس إذا بدأت من هنا. وضعت فمها على البقعة الحمراء وأخذت بامتصاصها بقوة، ثم بصقت على الأرض، وعاودت ذلك ثانية، بينما صراخ كوواتيتو لم يتوقف. هام كينو، عندما شعر أنه عاجز عن فعل أي شيء، إلا أنه كان في الطريق إلى الفعل.

جلب صراخ الطفل الجيران. اندفعوا خارج منازلهم المصنوعة من الأغصان الدغلية، مصطحبين معهم شقيق كينو، المدعو جوان توماس وزوجته البدينة أبولينا، و أولاده الأربعة. وما أن وصلوا إلى بوابة منزل كينو، حتى دفعوا البوابة وأخذوا يلقون أبصارهم، لمعرفة ماذا يدور هناك، وكنت تشاهد بعض الأطفال ينزلقون بين أرجل الكبار، دافعهم لذلك حب الاستطلاع. وبعد برهة، تبين لهذا الحشد أن الطفل قد لسعه عقرب، مهروس على الأرض: «عقربٌ لسع الطفل».

توقفت جوانا عن مص ثقب مكان اللدغ برهةً من الزمان. أخذ هذا الثقب الصغير يتعاظم بعشوائية، وأخذ اللون الأبيض يشوب نهاياته من جراء عملية المص، في الوقت الذي كنت تلاحظ أن الاحمرار باشر غزو هذه النهايات بدءاً من المركز. وجميع هؤلاء الناس

المتجمهرون كانوا على علم بأمر لدغات العقرب. فالشاب اليافع قد يصبح عليلاً من جراء هكذا لدغة، عداك عن الطفل، الذي قد تودي بحياته بسهولة. وكانوا يعلمون، أنه بادئ ذي بدء، يبدأ التورم ويحكم الخطر، ومن ثم تأتي مرحلة التشنجات في المعدة، وبعدها قد يموت كوواتيتو الصغير، إذا تسرب إلى جسمه كميات كافية من السموم. إلا أن الآلام الجادة كانت قد برحت الطفل، الذي تحول صراخه إلى أنين.

كان كينو عادة يتعجب من صلابة وصمود زوجته الواهنة الجسم. تلك، التي كانت مطيعة ومحترمة وحريصة وصامدة، أخذت الآن بتقويس ظهرها محتضنة ألم طفلها آخذة بالعويل. هي التي كانت دائماً تستطيع تحمل الإعياء والجوع بصورة أفضل مما يحمله كينو ذاته. ففي قارب الصيد، كانت تبدو كرجل قوي. والآن ها هي تصنع أكثر الأشياء إدهاشاً.

«الطبيب»، «اذهب واحضر الطبيب»، كانت هذه هي الكلمات التي وجهتها إلى كينو.

انتقلت هذه الكلمات إلى مسامع جمهرة الجيران، التي كانت قابعة على مسافة قصيرة من باب الدار. وبدأوا يكررونها بين بعضهم البعض: «جوانا، تريد الطبيب». إنه شيء غريب، جدير بالذكر، أن تطلب طبيباً! فلكي تحصل عليه، يجب أن يحدث شيء استثنائي. فالطبيب لم يحضر قط إلى مجموعة المنازل الدغلية هذه. لماذا عليه عمل ذلك، عندما يستطيع تقاضي أكثر مما يستحق في تطبيبه للناس الأغنياء، الذين يعيشون في بيوت مصنوعة من الحجارة والجص في المدينة؟.

«سوف لن يأتي الطبيب»، هذا ما كانت تردده جمهرة الناس، وانتقل ذلك الظن إلى كينو.

«سوف لن يأتي الطبيب»، هذا ما قاله كينو لجوانا.

أخذت جوانا تتفحصه من أخمص قدمه حتى قمة رأسه، بعيون باردة كعيون لبوة. لقد كان الطفل البكر لجوانا. كان كل شيء، تقريباً، في عالم جوانا. في هذا الوقت، رأى كينو التصميم في عينيها، على التوازي مع صدوح موسيقى "أغنية العائلة" في رأسه، بنغمة فولاذية.

«في هذه الحال، سوف نذهب إليه». هذا ما قالته جوانا، وبإحدى يديها أسدلت شالها ذي اللون الأزرق العاتم على رأسها، صانعة من إحدى نهايتيه حمالة لتعليق الطفل المتألم، ومن النهاية الثانية ظلاً فوق عينيه لحمايتهما من النور. وأخذت جمهرة الناس تباعد صفوفها سامحة لجوانا بالعبور. لحق كينو بها. تجاوزا باب المنزل، وأخذا يسيران في ممر كثير الأخاديد، وسار على إثرهما الجيران.

أصبح هذا المسير عبارة عن عرض يعبر عن مدى أواصر صلة الجيرة. توجه الحشد إلى المدينة، وأخذ يسِّير بخطوات موزونة، تضرب بقوة على الأرض، متوجهاً إلى المركز، في مقدمته، سار كينو وجوانا، وخلفهما كان جوان توماس وأبولونيا، التي لم يعقها جسمها البدين من الهرولة بنشاط، بعدها أخذ حشد الجيران يهرول على أنساق. وكانت الشمس الصفراء، المسلطة على ظهور أفراده، تصنع ظلالاً سوداء تتراقص أمام نواظرهم، الأمر الذي جعل المشهد يبدو وكأن ظلالهم كانت القدوة.

وصلوا إلى المكان الذي تنتهي فيه سلسلة البيوت الدغلية، وتبدأ مدينة الحجارة والجص، المدينة ذات الجدران المزخرفة والمزينة، وفي داخلها حدائق باردة، تلعب فيها المياه، وتعرشها نباتات البوغوفيلية* ذات الألوان الأرجوانية والقرميدية، الحمراء والبيضاء. سمعوا من هذه الحدائق أغنية، صدحت بها طيور محبوسة في

* نبات أمريكي مُعترش. — المترجم.

أقفاص، وسمعوا أيضاً رشرشة الماء البارد، الذي كان يتساقط على أحجار لوحية ساخنة. قطع الحشد ساحة المدينة العامة ووصل إلى بوابة الكنيسة. أصبح هذا الحشد أكبر من ذي قبل، حيث كان ينضم إليه أناس في الطريق، بعد أن يسمعوا بقصة لدغة العقرب لهذا الطفل المحمول، الذي كان يئن ألماً، والسبب الذي دفع أباه وأمه إلى حمله إلى الطبيب، لا العكس.

ألقى القادمون الجدد، خصوصاً الشحاذون الأربعة القادمون من أمام الكنيسة، الذين كانوا يمتازون بخبرة كبيرة في التحليل المالي ، ألقوا نظرة خاطفة على تنورة جوانا الزرقاء المهترئة، رأوا الدموع التي كانت تبلل شالها، والجديلتين المربوطتين بأشرطة خضراء اللون، وقرؤوا عمر الدثار على كتف كينو، وآلاف عمليات الغسل التي تعرضت لها ملابسه، وتصوّروا مدى الفقر الذي يعيشه مثل هؤلاء البشر، لهذا كله مضوا ليروا إلى ما ستتطور إليه هذه الدراما.

كان الشحاذون الأربعة، الذين يقفون عند بوابة الكنيسة، يعلمون بكل الأشياء التي تدور في المدينة. كانوا قادرين على دراسة و فك أسرار تعابير النساء الشابات، عندما يجدوهن قادمات للاعتراف في الكنيسة، كما كانوا يجيدون قراءة طبيعة الإثم الذي يحملن وهن خارجات منها. كما كانوا يعلمون بكل نزاعٍ صغير وببعض الجرائم الكبيرة. كانوا ينامون في أماكن يضللها بناءُ الكنيسة، الأمر الذي لم يجعل أحد يعبر إلى الكنيسة دون درايتهم. كما أنهم كانوا يعرفون الطبيب. علموا كل شيء عن طبيعته الجاهلة، القاسية والجشعة في آن، عن شهواته وآثامه. علموا بعمليات الإجهاض غير البارعة، التي كان يُجريها للنساء، وأنه كان لا يقدم سوى عدد صغير من البنسات البنية اللون للصدقات. وشاهدوا جسده البدين المترهل، في المرات التي كان فيها يئم الكنيسة. وعندما شاهدوا الحشد يتجاوز الكنيسة، وحيث أن صلاة الصباح الباكر قد انتهت، قرر هؤلاء الأربعة الانضمام إلى الحشد، ليتبينوا ما الذي سيفعله ذلك الطبيب السمين لهذا الطفل الفقير، الذي لدغه العقرب.

«ماذا ؟»، قال الطبيب.

«إنه هندي صغير مع طفل. قال إن عقرباً، كان قد لدغه».

وضع الطبيب الكوب جانباً بلطف، قبل أن يسمح لغضبه بالاشتعال.

«أليس لدي أفضل من معالجة لدغات حشرية لهندي صغير؟ إنني طبيب ولست بيطرياً».

«أجل يا سيدي»، هذا ما قاله الخادم.

سأل الطبيب: «هل يحمل أية نقود؟».

وأردف قائلاً:

«كلا، إنهم لا يملكون شيئاً. أنا، أنا الوحيد في هذا العالم، المزعوم أنني لا أعمل بلا ثمن - إنني أصبحت منهكاً من ذلك. أنظر، إذا كان يحمل أية نقود!».

توجه الخادم إلى البوابة، وحين وصوله إليها فتحها بمقدار ضئيل وألقى نظرة على حشد الناس المنتظر. وفي هذه المرة، خاطب الحشد باللغة القديمة:

«هل لديكم نقود لتدفعوها ثمناً للعلاج ؟».

ورداً على ذلك، وصلت يد كينو إلى مكان سري يقع تحت الدثار، وأخرج ورقة مطوية عدة طيات. فك طياتها حتى أصبحت مبسوطة، وبان أنها تحتوي على ثمان قطع من اللؤلؤ، غير مصقولة وفظيعة الشكل، إلى تلك الدرجة التي تبدو فيها عديمة القيمة. التقط الخادم الورقة وأغلق البوابة ثانية، لكنه في هذه المرة لم يتأخر طويلاً. وعندما فتح البوابة ثالثة، فتحها إلى تلك الدرجة التي تسمح بمرور الورقة فحسب. ووتوت قائلاً: «لقد غادرنا الطبيب. لقد استدعي لحالة جدية». وأغلق البوابة بسرعة لتدارك رؤية منظره المخزي.

والآن، سارت موجة من الحزن فوق الموكب المتجمهر. تبدد الناس بعيداً. اتجه الشحاذون الأربعة باتجاه الكنيسة، وتفرق المشردون، أما الجيران فغادروا بالطريقة التي لا يرون فيها الخزي والفشل في عيني كينو.

لفترة طويلة، وقف كينو مع جوانا في مواجهة البوابة. وببطءٍ أعاد قبعته إلى رأسه، ومن ثم ودون سابق إنذار ضرب البوابة بعنف بقبضته المهتاجة. بحلق بعدها باندهاش في براجمه المشققة وفي الدماء التي أخذت تسيل من بين أصابع قبضته.

2

استلقت المدينة على شاطئ مصب نهر عريض، وكانت أبنيتها القديمة الصفراء المزخرفة بالجص، تجثم على صدر الشاطئ. وعلى الشاطئ كانت تتلألأ قوارب زرقاء وبيضاء، جاءت من نايا ريت، قوارب حوفظ عليها من جيل إلى آخر بواسطة لصوق شبيه بالصدف، مانع لتسرب المياه، كانت صناعتها سراً من أسرار رجال الصيد، وهذه القوارب كانت عالية وجميلة، بمقدمات ومؤخرات مقوسة، أما مقاطع أواسطها فهي معززة القوة، وفيها أمكنة لربط صواري، ذات أشرعة مثلثة الشكل، إذا دعت الحاجة.

كانت رمال الشاطئ صفراء اللون، إلا أنه على حافة المياه كنت تشاهد كسارة من الصدف والطحالب، حلت محل هذه الرمال. وكانت السلطعونات تزبد وتبقبق من جحورها الرملية، الموزعة على الرمال. وفي المياه الضحلة ظهر الكركدن الأحمر الفاتح داخلاً وخارجاً من وإلى جحوره الصغيرة، المنتشرة في الوحل والرمال. بان قاع البحر غنياً بأشياء كثيرة، منها الزاحفة والسابحة، والتي تنمو. أما الطحالب ذات اللون البني، فكانت تتموج في تيارات بهية، وعشب الأنقليس يتمايل، وأفراس البحر الصغيرة أخذت بالالتصاق بسويقات نباتية. وعندما كنت تبحث عن البوتيتو* المبرقع، كنت تجده مستلقياً على فراش الأنقليس، في حين كانت السلطعونات الملونة المضيئة تسبح فوقه.

---

* البوتيتو: سمكة بحرية سامة. ـــ المترجم.

وعلى الشاطئ، كانت كلاب وخنازير المدينة الجائعة، تبحث بلا انقطاع عن سمكة ميتة أو طائر بحري، لعله حط لأخذ قيلولة، استعداداً للطيران ثانية.

بالإضافة إلى أن الصباح كان فتياً، الوقت الذي فيه ترتفع أسراب من الضباب. كان الهواء متقلباً تسبح فيه بعض الأشياء، راحت تصطدم بأخرى وتلطخها، تلك الأشياء التي كانت مستقرة على جانبي الخليج أو تحبو على رماله، وكل هذا جميعه رسم لوحة غامضة، كانت وجوهها تنقلب من حين إلى آخر، مشكلة لوحة أخرى أكثر غموضاً؛ الأمر الذي جعل البحر والأرض يتبادلان العناق والحب، تارة يكون البحر فيها ذكراً وأخرى أنثى. إنه مشهد من مشاهد الأحلام. وهذا يعود إلى أن قاطني الخلجان عادة يؤمنون بأن هناك أشياء روحية وأخرى وهمية تخيلية، أكثر مما تراه عيونهم عندما تصبح هذه الأشياء حقيقة واقعة في حدقاتها، بأدق التفاصيل.

عِبْر مصب النهر وابتداءً من نهاية المدينة، شمخ خط طويل من أشجار المنغروف*، كان جزء منها يتمتع بتنسيق هندسي، وآخر متناثر، كانت الأشجار فيه تبدو كلطخ متباعدة. وكان الشاطئ البعيد يبدو كومض واهن، لا تفرق بينه وبين الماء. بدت الرؤيا غير مؤكدة، والأشياء تشاهدها الأنظار بلا تفاصيل، إلى الدرجة التي فيها لا يُستطاع تمييز الأشياء بعضها عن الآخر. أما قاطنو الخليج فكانوا قد تعودوا على هذه الأمور، كما في العالم قاطبةً، لذا لم يبد عليهم الاستغراب. أخذ ضباب نحاسي اللون يتدلى فوق المياه، في الوقت الذي كانت فيه الشمس الساخنة تضرب فيها، مجبرةً إياها على التموج بتهور.

كانت بيوت صيادي الأسماك الدغلية إلى الخلف من الشاطئ، على الجانب الأيمن من المدينة، والقوارب كانت مصطفة على جبهة هذا النطاق.

---

* المنغروف: شجر استوائي، تنبثق من أغصانه جذور جديدة. ـــ المترجم.

نزل كينو وجوانا ببطءٍ إلى الأسفل باتجاه الشاطئ، متوجهان إلى قارب كينو، الذي كان يشكل الثروة الوحيدة له في هذا العالم. كان القارب قديماً، أحضره جد كينو من منطقة نايا ريت، وورثه عنه والد كينو، وانتقل أخيراً إلى كينو ذاته. شكّل هذا القارب الملكية الوحيدة ومصدر الرزق الوحيد، لرجل يجب عليه أن يضمن معيشة امرأة، وأخيراً زد على ذلك طفلاً. إنه المتراس الأخير الذي يقف في وجه الجوع. وكان كينو في كل عام يعيد فرش هذا القارب بواسطة لصقات بلاستيكية شبيهة بالصدف بطريقة سرية، تعلمها بالوراثة.

وصل الآن إلى القارب، لمس مقدمته وهز حبل القطر هزة شديدة، الأمر الذي كان يقوم به في كل مرة يدنو فيها منه. ألقى صخرة الغوص والسلة والحبلين على الرمال، بالقرب من القارب. وتحرر من الدثار وفرشه في مقدمة القارب.

وضعت جوانا كوواتيتو الصغير على الدثار وغطته بشالها، لحمايته من أشعة الشمس. أصبح الصغير هادئاً الآن، لكن الانتفاخ الذي ظهر على كتفه، تابع انتشاره حتى الرقبة وإلى أسفل الأذن، كما بان على وجهه بعض التورم وانتابته الحمى. توجهت جوانا إلى الماء وأخذت تخوض فيه. قامت بجمع بعض الطحلب البحري، صانعة منه كمادة ندية، قامت بوضعها على كتف الطفل المتورم، التي قد تصبح وسيلة لعلاجه، كما قد يفعل الطبيب، أو أفضل من أي علاج كان قد استطاع أن يقدمه له. إلا أن هذا العلاج كان مفتقداً لشهادة تعترف به، ولم يحصل عليها لأنه بسيط ولا يكلف نقوداً. توقفت المعدة عن تشنجاتها عند الطفل. فربما كانت جوانا قد امتصت السم وأخرجته في الوقت المناسب، في الوقت الذي فيه لم تتمكن من امتصاص خشيتها على مولودها الأول. إنها لم تتذرع لشفاء الطفل بصورة مباشرة، بل هي تذرعت من أجل العثور على لؤلؤة، يمكنها من استئجار الطبيب لشفاء الطفل. وكان هذا الأمر بالنسبة للناس أمراً كالسراب وكضباب الخليج.

دفع كل من كينو وجوانا القارب إلى أسفل الشاطئ باتجاه الماء، وعندما طفا، قفزت جوانا إليه، في الوقت الذي دفع كينو مؤخرة القارب، واندفع في الماء مجاوراً إياه، حتى أصبح في وسط الماء وأخذ يهتز قليلاً كاسراً الأمواج. قفز كينو إلى القارب وبتنسيق تام أخذ كل من كينو وجوانا يديران مجاذيفهما المزدوجة في البحر، وأخذ القارب يندفع مهسهساً بسرعة. أما صيادو اللؤلؤ الآخرون فكانوا قد عبوا عباب البحر منذ وقت طويل. ولدقائق عدة، كان كينو يتصورهم مجتمعين في ضباب محكم، حول فراش من محار في قاع البحر.

أخذت أشعة الشمس تترشح عبرّ مياه البحر واصلة إلى قاعه، حيث اضطجعت محارات لآلئ مكسورة ومفتوحة ، وكانت تبدو كأنها تحتضن هذا القاع المتوحل. هذا هو قاع البحر الذي دفع ملك أسبانيا ليصبح أقوى ملوك أوروبا في الأعوام الخالية، حيث ساعده ليجزل الصرف من أجل حروبه، والذي أسهم في تزيين كنائسه لأغراض روحية بحتة، من أجله هو فحسب. كانت المحارات الرمادية ذات التجاعيد، شبيهة بالأجزاء السفلية من الأصداف. وكانت هدابيات الأرجل تكسو المحارات ببقع منتشرة على شكل طحالب بحرية معلقة في أسفل الجسم، أما السلطعونات الصغيرة فكانت متسلقة فوقها. قد يقع حادث ما لهذه المحارات، فقد تغزو حبيبات الرمال عضلاتها، الأمر الذي يثير البشرة لإنتاج دفاعاً ذاتياً، إلا أن ذلك يحصل بعد أن تكون البشرة قد كُسيت بطبقة من الرمل، ناعمة كالإسمنت الأملس. وبمجرد انطلاق هذه العملية، تتابع البشرة الاكتساء من الأجسام الأجنبية، حتى تشعر أنها تلعب حرة أثناء عملية المد والجزر، أو على النقيض، الذي فيه قد تتدمر المحارة. لقرون من الزمان كان الرجال يغوصون إلى أعماق البحار وينزعون المحارات من قيعانها، ويفتحونها متفحصين هذه الكسوة، المؤلفة من حبات الرمال. أسراب من الأسماك عاشت قريباً من القاع، اقتاتت من المحارات المرمية المفتوحة، التي كان الرجال الباحثون عن اللآلئ

قد أعادوها، لتتغذى عليها الأسماك. إلا أن العثور على اللآلئ كان يتم صدفةً، والعثور على واحدة كان أمراً من أمور الحظ، وهو عبارة عن نقرة خفيفة على المؤخرة، من قبل الله أو الآلهة أو كلهم مجتمعين.

امتلك كينو حبلين، أحدهما كان يربطه إلى حجر كبير ثقيل والآخر إلى السلة. نزع كينو قميصه وسرواله ووضع قبعته في قاع القارب. كان الماء ناعماً كنعومة الزيت. التقط صخرة الغوص بيد والسلة باليد الأخرى، وأنزلق من القارب، وأخذت صخرة غوصه تدفعه إلى القاع. أخذ زَبَدُ الماء يبقبق حوله والفقاقيع ترتفع من خلفه، قبل أن يصفو البحر وتصبح الرؤية ممكنة. وفوقه أصبح سطح الماء كمرآة ضياء مثالية، لدرجة أنه كان يستطيع رؤية قيعان القوارب وهي تلتصق بهذا السطح بوضوح تام.

أخذ كينو يتحرك بحذر، لكي لا يصبح الماء معكراً بالوحل أو بالرمال. كلَّب قدمه بأنشوطة صخرة الغوص، وأخذت يداه تعملان بسرعة في التقاط المحارات، بعضها على انفراد، وأخرى معنقدة. وكان يرميها جميعاً في السلة، وكانت المحارات في بعض الأمكنة ملتصقة أحدها بالأخرى، إلى تلك الدرجة التي لم يستطع فيها نزعها إلا على شكل كتل.

غنى الناس، الذين هم من معشر كينو، عن كل شيء يحدث، أو أي شيء كان قد وجد. صنعوا أغاني عن الأسماك، عن البحر في غضبه وهدوئه، عن الضياء والظلمات، عن الشمس والقمر، وجميع الأغاني كانت تعتبر عند كينو أو معشره. كل منها هي الفريدة في صناعتها، إلى تلك الدرجة التي لا يمكن أن ينساها من يسمعها لأول مرة.

وعندما ملأ كينو سلته، أخذت أغنية تدور في رأسه، كانت نغماتها تتناغم مع دقات قلبه، الذي أخذ يأكل الأوكسيجين الاحتياطي في صدره، أما ميلوديا الأغنية فكانت الماء "الأشيب ـ المخضر" والحيوانات الصغيرة العادية وموجات الأسماك التي مرت

من هنا واختفت. إلا أن هذه الأغنية تضمنت سراً داخلياً صغيراً من الصعوبة إدراكه، إلا أنه دائماً كان هنالك جمال وأسرار تختفي في خبايا الميلوديات، بما فيها ميلوديا أغنية "اللؤلؤة التي قد تكون"، في أية صدفة رُميت في السلة. قد نعثر على لؤلؤة. كانت الفرص قليلة، إلا أن الحظ والآلهة قد تقف في صفه. عندما وصل كينو إلى القاع، تذكر أن جوانا تذرعت تذرعات سحرية وهذا ما بدا على وجهها، عندما كانت جالسة وعضلاتها متحفزة وجاهزة لإجبار الحظ أو خطفه من بين أيدي الآلهة، لأنها تريده من أجل كتف كوواتيتو المتورم. ولأن الحاجة كانت عظيمة، كان التوق عظيماً، وكان السر الصغير لميلوديا اللؤلؤة، أكثر قوة هذا الصباح. وجميع المقاطع أتت جلية وناعمة إلى أغنية قاع البحر.

وكينو بكل كبريائه وشبابه وقوته، كان يستطيع المكوث في قاع البحر أكثر من دقيقتين بدون توتر ودون أن يحس بالإجهاد، لذا أقدم على عمله بتروٍ، مختاراً أكبر الصدفات. وبما أنها كانت مبعثرة، فإن محاراتها كانت مغلقة بإحكام. وعلى يمينه قليلاً، كانت هناك أجمة من الوحل الصخري، تخرج منها نتوءات حادة عمودية، مغطاة بمحارات فتية، ليست قابلة للانتزاع. تحرك كينو إلى الجوار من هذه الأجمة، وإذ بجانبها وتحت الجزء المتدلي، رأى محارة كبيرة، مضطجعة على انفراد. كانت المحارة مفتوحة جزئياً، وكان الجزء المتدلي قد حمى هذه المحارة العتيقة، وللحظة شاهد كينو طيفاً ومضياً، حينما أغلقت المحارة نفسها. أخذ قلبه يضرب ويرقص، أما أنغام ميلوديا "قد تكون لؤلؤة" فقد أخذت تضرب في سامعيه. وبنعومةٍ وببطءٍ انتزع كينو هذه المحارة العتيقة وحضنها بقوةٍ إلى صدره. حرر قدمه من صخرة الغوص، وأخذ جسمه يصعد إلى سطح البحر، بينما كان شعره الأسود يتماوج في أشعة الشمس. وصل أخيراً إلى القارب ورمى المحارة إلى قاعه.

في إثر ذلك، أخذت جوانا تثبت القارب، بينما قفز كينو إليه. كانت عيناه تشعان إثارة، وبلياقة سحب صخرة الغوص، وبعدها سلة المحارات، وألقاهما في القارب. شعرت جوانا بالإثارة من خلال عينيه، إلا أنها تعمدت النظر إلى الأفق. ليس جيداً أن ترغب بشيء أكثر من اللازم. فهذا أحياناً، قد يسوق الحظ بعيداً. عليك أن تتوقف عن الرغبة فيه، وتكون واثقاً من رأفة الله أو الآلهة. حبست جوانا أنفاسها، وببراعة فتح كينو مديته القصيرة القوية. ألقى نظرة مُتأملة على السلة. لعله من الأفضل تأجيل فتح المحارة الكبيرة إلى الأخير. أخذ محارة صغيرة من السلة، قطع عضلاتها وبحث فيها، ثم رماها في الماء. بعدها بدا كأنه رأى المحارة الكبيرة لأول مرة. قرفص في قاع القارب، والتقط المحارة الكبيرة آخذاً بتفحصها. كانت أخاديد المحارة تشع بألوان هي بين البني والأسود، وفقط وُجدت قلة من هدبيات الأرجل الصغيرة ملتصقة بالصدفة. وعادت إليه الرغبة في عدم فتح المحارة الآن. ماذا رأى؟ ظن أنه قد يكون انعكاساً، أو قطعة من الصدفة تحطمت وانحرفت، أو أن هذا كله عبارة عن وهم. ففي خليج ضياء السراب، هنالك كثير من الأوهام وقليل من الحقائق.

إلا أن عيني جوانا كانتا مسلطتين على كينو، وهي لم تعد تطيق الانتظار. وضعت يدها على رأس كوواتيتو المغطى، وقالت بلطف: «افتحها».

غرز كينو رأس مديته برشاقة في نهاية الصدفة. ومن خلال المدية، أخذ يشعر بأن عضلات المحارة قوية جداً. حرك النصل بحرص شديد، وأخذت العضلات المغلقة تتشقق وانقسمت الصدفة، بعد أن التوت شفاهها وغارت إلى الداخل. أخرج كينو أجزاء الصدفة الداخلية اللحمية، الأمر الذي جعل أصابعه تتلمس لؤلؤة ضخمة مستلقية في الداخل، وحينها بانت له كالقمر تماماً. إنها تستولي على الضياء وتعيد صقلها لتصدره ثانية على شكل توهج فضي حراري. إنها ضخمة كضخامة بيضة نورس البحر. كانت أعظم لؤلؤة في العالم.

حبست جوانا أنفاسها، وأصدرت أنة خفيفة. أما بالنسبة إلى كينو، فقد أصبح سر ميلوديا "قد تكون لؤلؤة" أكثر جلاءً وجمالاً، غنياً ودافئاً ومحبباً، تكلل أخيراً بالنصر. كان يمكنه أن يرى على سطح هذه اللؤلؤة الضخمة جميع أحلامه. انتزع اللؤلؤة من الصدفة الميتة، ووضعها على راحة يده، وأخذ يقلبها متفحصاً دقة انثناءاتها ليتأكد من سلامتها. دنت جوانا لتتمعن في اللؤلؤة وهي في يده، ومن ثم التقطتها منها، تلك اليد التي ضربت، هذا اليوم صباحاً، بوابة منزل الطبيب، وقد تحول لحم براجمها الممزقة الآن إلى لون رمادي فاتح، من جراء تأثير دموع الصدفة ومياه البحر. وبشكل غريزي، توجهت جوانا إلى كوواتيتو، حيث كان مستلقياً على دثار والده. رفعت جوانا كمّادة الطحلب البحري، وفحصت كتف الطفل، وعلى الأثر صرخت عالياً: «كينو!».

أزاح كينو ناظريه عن لؤلؤته ووجههما حيث النداء، فرأى أن الورم قد اختفى عن كتف الطفل، وبدا أن السم قد تقهقر عن جسمه. بعدها أطبق كينو قبضته على اللؤلؤة، وأخذ يحاول كبح جماح مشاعره، لكنه لم يستطع إلى ذلك سبيلاً. وما كان منه إلا أن استلقى على ظهره وأسند رأسه على قاع القارب وأخذ يعوي كالكلاب. جحظت عيناه وتصلب جسده، وعاد إلى الصراخ ثانيةً.

أخذ الرجال في القوارب الأخرى يتفحصون الموقف، أصاخوا السمع برهة، ثم ما لبثوا أن أداروا مجاذيفهم وتوجهوا بقواربهم باتجاه قارب كينو.

3

البلدة، إنها شيء شبيه بحيوان المستعمرات. للبلدة جهاز عصبي ورأس وكتفان وقدمان. إن كل بلدة تختلف عن غيرها من البلدات، فليس هناك بلدتان متماثلتان. كما تمتلك البلدة عواطف وأحاسيس كاملة. كيف تسافر الأخبار عبر البلدة، إنها أحجية من الصعوبة بمكان حل ألغازها. ويبدو أن الأخبار تتحرك بسرعة أكبر من سرعة الأولاد الصغار، فيما لو كلفوا بنقلها، وأسرع مما تقوم به النساء، وهن يتبادلن الثرثرات، من خلف أسيجة المنازل.

وقبل أن يصل كينو وجوانا والصيادون الآخرون إلى منزل كينو، المصنوع من أغصان الدغل، كانت أعصاب البلدة تنبض بذبذبات هذا الخبر: عثر كينو على جوهرة العالم. وقبل أن يتوقف لهاث الأطفال الصغار، ليحرروا الكلمات من صدورهم لأمهاتهم، كانت الأخيرات قد علمن به. قفزت الأخبار من المنازل الدغلية وطارت على شكل أمواج لتصب في بلدة الحجارة والجص. وصلت إلى القس، الذي كان يتمشى في حديقته، تلك الأخبار التي جعلته ينظر نظرة ملؤها التفكير، واسترجعت ذاكرته تعداد الإصلاحات التي تحتاج إليها الكنيسة. أخذ يتساءل بينه وبين نفسه، عن قيمة هذه اللؤلؤة. وتساءل أيضاً عما إذا كان هو الذي عمّد ابن كينو، أو هو الذي شهد على زواجه. وصلت الأخبار إلى أصحاب المحلات التجارية، الذين أخذوا ينظرون إلى الملابس الرجالية، التي لم ترج رواجاً حسناً.

وصلت الأخبار إلى الطبيب ذاته، في وقت كان فيه يجلس مع امرأة كانت تشكو له من مرض الشيخوخة، مع أنهما لم يكونا يعلمان بذلك. إلا أنه وبعد ورود أنباء أخرى، أكثر تفصيلاً، لا سيما

عن كينو، صاحب اللؤلؤة، أخذت تبدو الحكمة والحصافة على الطبيب، الذي خاطب المرأة قائلاً:«إنه من زبائني»، «كنت قد عالجت ابنه من لسعة عقرب».

وأخذت حدقتا عيني الطبيب تتأرجحان في مقلتيهما، أما عقله فأخذ يفكر في باريس. راح يتذكر الغرفة التي كان يعيش فيها هناك، وكيف أنها كانت تقع في حي مُترف، وتذكر أيضاً الوجه الصارم للمرأة التي عاشت على أنها فتاة جميلة، بهية الطلعة ووديعة، مع أنها لم تكن ولا واحدة من هؤلاء الثلاثة.

أخذ الطبيب يتذكر سنواته الخوالي في باريس مُفكراً فيها، تخيل نفسه في مطعم في باريس، والنادل ينتهي من فتح زجاجة من النبيذ.

وصلت الأخبار باكراً إلى الشحاذين المقيمين عند بوابة الكنيسة، الأمر الذي جعلهم يقهقهون قليلاً بارتياح، لأنهم يعلمون أنه ليس هناك متصدقاً في العالم أكرم من ذلك الذي جاءه الغنى فجأة، بعد أن كان مَعوزاً.

وجد كينو لؤلؤة العالم. في البلدة، وفي مكاتب صغيرة، جلس الرجال، الذين كانوا يشترون اللآلئ من صيادي الأسماك. كانوا ينتظرون، وهم جالسون على أرائكهم الوثيرة، اللحظات التي تصل فيها اللآلئ إليهم، حيث يبدؤون حينها بالتقليل من شأنها والمساومة والمجادلة والصراع وصولاً إلى التهديد، قبل أن يتوصلوا لدفع أقل قيمة ممكنة ثمناً لها. لكن كان هناك سعر لا يجرؤون النزول تحته، فقد حدث مرةً، أن قدم أحد الصيادين لآلئه هديةً للكنيسة، بعد أن أصابه اليأس. وعندما كانت تجري عمليات الشراء، يأخذ التجار اللآلئ المشتراة، متفحصين إياها جيداً بأصابعهم، مبدين رغبة في امتلاكها. لم يكن هنالك تجار لآلئ كثر في هذه البلدة، بل، في الحقيقة، كان هنالك تاجر واحد، افتتح عدة مكاتب لهذا الغرض لاضفاء مظهر المنافسة في عمليات الشراء.

وصلت الأخبار إلى هؤلاء الرجال، الأمر الذي جعل عيونهم تنظر شزراً، وأطراف أصابعهم كأنها تشتعل فيها النيران، وكل واحد منهم كان يفكر بالطريقة التي لا يسود فيها "سيد" هذا الكار إلى الأبد، وبالكيفية التي يستطيع فيها احتلال مركزه. وآخرون كانوا يفكرون بالطريقة التي ينطلقون فيها بواسطة رأسمال قليل.

أصبح سلوك الناس مُركزاً على كينو، من يمتلك شيئاً يريد بيعه، وبعضهم أخذ يفكر بطلب فعل المعروف.

عثر كينو على لؤلؤة العالم. امتزجت روح الجوهرة بأرواح الرجال وأصبح الفضول الظلامي المتخلف مهيمناً عليهم. كل رجل أصبح معلقاً بعرقوبيه بلؤلؤة كينو، وأصبحت لؤلؤة كينو موضوعاً لأحلام الجميع، انطلاقاً من المضاربة، مروراً بالمشاريع والخطط والمستقبل والرغبات والحاجات والشهوات، وصولاً إلى درء المجاعة، وذلك عند الجميع. وكان هناك رجل وحيد يقف في قارعة الطريق، هو كينو، الذي من المؤكد أنه أصبح عدواً للجميع. أعادت هذه الأخبار بعض أشياء سوداء إلى البلدة، كانت قد اندثرت، بالإضافة إلى جعلها الشيطان مخيماً على البلدة. كان هذا الاسوداد القطراني شبيهاً بالعقرب، أو كالجوع عندما يتصادف مع رائحة طعام، أو كالوحدة عندما يصبح الحب مكبوحاً. أخذت جيوب سموم البلدة تباشر في صناعة المؤامرات، وأخذت البلدة تتضخم وتلهث وراء ذلك، بضغط الضغينة.

إلا أن جوانا وكينو لم يعلما بهذه الأمور جميعها، لأنهما كانا سعيدين ومسرورين، ويظنان أن كل إنسان يشاركهما هذه السعادة وهذا السرور. جوان توماس وأبولينا قاما بذلك، في الوقت الذي كانا فيه جزء من العالم الآخر أيضاً. في عصر ذلك اليوم وعندما كانت الشمس تسبح فوق جبال بينينسولا متجهة للغروب في أفق ما بعد البحر، كان كينو قابعاً في منزله وجوانا إلى جانبه. وازدحم منزله الدغلي بالجيران. كان كينو يحتفظ باللؤلؤة في يده، التي كانت تشع

دفئاً وتنبض حياةً. وفي هذه الأثناء كانت موسيقى اللؤلؤة تختلط بموسيقى العائلة، إلى تلك الدرجة، التي كانت كل منهما تجمّل الأخرى. كان الجيران ينظرون إلى اللؤلؤة وهي قابعة في قبضة كينو، وهم مندهشون من الكيفية التي قد يصيب فيها الحظ رجلاً ما.

أما جوان توماس، الذي كان جالساً إلى اليمين من كينو، وبما أنه أخوه، فقد طرح سؤالاً: «ما الذي ستصنعه الآن، بعد أن أصبحت رجلاً ثرياً؟».

تمعن كينو في اللؤلؤة، أما جوانا فأرخت جفنيها إلى الأسفل وغطت وجهها بالشال، لكي لا يبدو انفعالها للآخرين. ومن تحت توهج اللؤلؤة، أخذت الصور تتشكل لأشياء مرت في ذهن كينو، في الماضي، وتخلى عنها لأنها كانت من الأمور المستحيلة. في اللؤلؤة، رأى جوانا وكوواتيتو وشخصه ينحنون أمام مذبح الكنيسة العالي، وهم يحتفلون بزواجهما، لأنهما أصبحا قادرين على دفع ثمن هذا الاحتفال.

قال كينو بعذوبة: «سوف نتزوج في الكنيسة».

في اللؤلؤة، شاهد ماذا كان وجوانا يرتديان، أثناء حفلة الزفاف: جوانا يلفها شال متين جديد وتنورة جديدة، ومن طرف التنورة الأسفل، كانت تبدو قدماها في حذاء جميل. كانت هذه اللوحة مرسومة على اللؤلؤة - إنها تتوهج الآن. أما كينو فكان يبدو مرتدياً ملابس بيضاء جديدة وحاملاً قبعة جديدة ليست من القش، بل من اللباد الأسود الداكن - وهو أيضاً كانت قدماه تقبعان في حذاء، وليس في صندل، بل في حذاء ذي ربّاط. وكوواتيتو، كان يرتدي بذة بحار زرقاء، مصنوعة في الولايات المتحدة، وقبعة كان يستخدمها بحارة اليخوت، كتلك التي كان كينو قد شاهدها مرة، عندما رسا أحد يخوت الاصطياف في مصب النهر. جميع هذه الأشياء شاهدها كينو على سطح اللؤلؤة الساطع، وقال على الإثر: «سوف نمتلك ثياباً جديدة».

ارتفعت أصوات موسيقى اللؤلؤة، كأنها كانت تصدر عن جوقة أبواق، ضاربة في أذني كينو. بعد ذلك، حضرت إلى سطح اللؤلؤة الأشيب أشياء صغيرة، رغب بها كينو: الحربون*، ليأخذ مكان واحد كان قد فقده في العام الماضي، حربون جديد مصنوع من الفولاذ، له جرس في نهاية قصبة الرمح، وكان يصعب على ذاكرته أن تصنع قفزة ـ البندقية ـ ولكن لم لا، منذ أن أصبح غنياً بهذه الصورة. وكينو قد شاهد في اللؤلؤة، كينو الذي كان يحمل بندقية قصيرة من صناعة وينشستر. كان هذا اليوم هو اليوم الحالم والأكثر ألفة وإمتاعاً. أخذت شفتاه توتوت بكلمة "البندقية" وأردفتا قائلتين: «ربما البندقية».

إنها البندقية التي تستطيع تحطيم الحواجز. كان هذا خارج الإمكان، وإذا فكر بامتلاك بندقية، فإن جميع الآفاق ستنجلي في وجهه وتجعله يندفع إلى الأمام. في قوله هذا إثبات على أن البشر لا يقتنعون، لأنه كلما حصلوا على شيء، طالبوا بأشياء أخرى. وهذا القول ينطلق من استخفاف بقيمة الإنسان، إلا أنه، كيفما اتفق، فإنه يعبر عن مواهب عظيمة لهذا النوع البشري، وهو من أحد الأمور التي جعلته متفوقاً على الحيوانات، التي لم تستطع التعويض عن ذلك بأشياء تتميز بها.

ملأت حشود الجيران منزل كينو، الذي ساد فيه صمت مطبق، أخذ فيه هؤلاء يَكبون من شدة النعاس، في الوقت الذي كانت فيه تأخذهم تخيلاتهم إلىَ البعيد. وأخذ رجل في المؤخرة يهمس قائلاً: «البندقية. سوف يمتلك بندقية».

إلا أن موسيقى اللؤلؤة كانت تصدح حادةً في مسامع كينو. شمخت جوانا رأسها عالياً، وكانت عيناها تعكسان ما يدور في خلدها من تفكير في شجاعة زوجها كينو وأحلامه. فجأة، كأن قوة كهربائية استحوذت على كينو، فتحت أمامه جميع الآفاق. وفي

---

* رمح لصيد الحيتان ـــ المترجم.

اللؤلؤة، شاهد كوواتيتو يجلس خلف مقعد دراسي صغير، كما لو أنه كان يراه عبر باب مفتوح. كان كوواتيتو يرتدي جاكيتاً وياقة بيضاء مع ربطة عنق حريرية عريضة. زد على أن كوواتيتو أخذ يكتب على قطعة كبيرة من الورق. وبين هذا وذاك، أخذ كينو يتمعن في جيرانه بعنف. «سوف يذهب ابني إلى المدرسة»، قال ذلك، بينما كان على الجيران أن يعلنوا عن دهشتهم. حبست جوانا أنفاسها فجأة. وأخذت عيناها تشعان، وألقت نظرة سريعة إلى الأسفل على كوواتيتو، الذي كان مضطجعاً بين ذراعيها، لتتأكد من إمكانية تحقق ذلك.

بدا وجه كينو، بذلك الشكل الذي كأن صاحبه يحمل نبوءة: «سوف يتمكن ابني من القراءة وفتح الكتب، وسوف يكتب ويتعلم الكتابة. وسوف يصنع ولدي الأرقام، وهذا الأشياء سوف تجعلنا أحراراً، لأنه سوف يعرف. سوف يعرف، ومن خلاله سوف نعرف». كما رأى كينو في اللؤلؤة شخصه مع جوانا متحلقين حول نار خفيفة في كوخ دغلي، بينما كان كوواتيتو يقرأ في كتاب كبير. «هذا ما تستطيع اللؤلؤة القيام به»، هذا ما صرح به كينو، الذي لم ينطق في حياته هذا الكم من الكلمات وراء بعضها البعض. وفجأة، سيطر عليه الخوف، من ما صدر عنه من حديث. أطبقت قبضته على اللؤلؤة، مما جعلها معزولة عن النور. وهكذا أصبح كينو جزءاً، كالجزع الذي هيمن على ذلك الرجل، بعد أن قال: «أنا سوف..»، دون علم منه.

الآن أصبح الجيران على علم بأنهم شهدوا معجزة عظيمة. كما علموا بأن توقيت الزمن، سوف يباشر من جديد، انطلاقاً من ظهور لؤلؤة كينو، وأنهم سيبقون يتجادلون حول هذه اللحظة لسنوات عديدة قادمة. وإذا أصبحت هذه الأشياء، من أمور الماضي، سوف يعيدون رواية الهيئة التي بدا فيها كينو، وما الذي قاله، وكيف كانت عيناه تشعان، وسوف يقول كل منهم: «كان رجلاً محاطاً بهالة من الجلال. لقد حصل على طاقة هائلة، بقيت مخزونة فيه. أنتم ترون كم

أصبح هذا الرجل عظيماً، ابتداءً من تلك اللحظة. وأنا بذاتي شهدت ذلك».

وإذا انتهت خطط كينو إلى الفشل، فسوف يقول هؤلاء الجيران ذاتهم: «هنالك كان الانطلاق. ركبه الجنون، لذا بدأ بالتفوه بكلمات حمقاء. ليحفظنا الله من مثل هكذا أشياء. أجل، عاقب الله كينو لأنه تمرد ضد مسيرة الأشياء. وها أنتم ترون ما الذي حل به. وأنا بذاتي شهدت تلك اللحظة التي فقد فيها عقله».

بحلق كينو في قبضة يده المغلقة وفي مفاصل أصابعها المهشمة والمتوترة، وتذكر اللحظة التي ضرب فيها بوابة الطبيب.

الآن، أخذ الغسق يقترب. لفّت جوانا الطفل بالشال، بطريقة أصبح فيها معلقاً في مواجهة وركها، واتجهت إلى الموقد، وباشرت بتنظيفه من الرماد، ومدته ببعض الأغصان وأشعلت النار من جديد، الأمر الذي جعل اللهب الصغير يرقص على وجوه الجيران. أدرك الأخيرون أنه يتوجب عليهم التوجه إلى منازلهم لتناول طعام العشاء، إلا أنهم كانوا غير راغبين في المغادرة.

خيم الظلام، وأخذت نيران جوانا تنشر ظلالها على جدران المنزل الدغلي، وعندما نطق أحدهم هامساً، بدأت هذه الهمسة ترتحل من فم إلى آخر:

«قَدِم الأب ـ قدم القس».

نزع الرجال القبعات عن رؤوسهم وتنحوا إلى الخلف عن الباب، وغطت النساء وجوههن بالشالات وخفضت العيون. أما كينو وأخوه جون توماس فانتصبا واقفين. دخل القس، وهو رجل أشيب عجوز، ذو بشرة مجعدة، وعينان حادتان فتيتان. «يا أبنائي»، هكذا كان يخاطب القس هؤلاء الناس.

قال القس بنعومة: «يا كينو!» «لقد سُميت باسم رجل عظيم، وباسم أب عظيم أيضاً للكنيسة»، وجعل العبارة الأخيرةً تنطق بطريقة تضفي عليها البركة. «كان سُمَيُك قد روض الصحراء، وشذب عقول الناس. هل تعلم ذلك؟ إنه مستخرج من الكتب».

ألقى كينو نظرة سريعة على رأس كوواتيتو، الذي كان معلقاً على ردفي جوانا. في يوم ما، قال له عقله أن هذا الصبي سوف يعرف الأشياء الموجودة في الكتب، وأيها التي لا توجد فيها. صدحت الموسيقى مغادرة رأس كينو، إلا أنها كانت الآن، رقيقة، بطيئة. إنها لحن الصباح، موسيقى الشيطان، تصدح بصوت العدو، إلا أنها كانت ضعيفة ومترددة. تفحص كينو وجوه جيرانه ليتعرف على الذي أوحى له بهذا اللحن ومن الذي جلب هذه الأغنية.

إلا أن القس، أردف قائلاً: «قيل لي، أنك عثرت على ثروة ضخمة، اللؤلؤة العظيمة».

فتح كينو قبضة يده وأماط اللثام عن اللؤلؤة، الأمر الذي جعل القس يلهث متلهفاً مما رآه من كبر حجمها وجمالها. إثر ذلك، قال القس: «أتمنى عليك، يا بني، أن تتذكر تقديم الشكر إليه، الذي أعطاك هذا الكنز الدفين، وأن تبتهل في طلب الهداية في المستقبل».

أومأ كينو برأسه، دون أن ينبس ببنت شفة، وجاء الحديث الناعم من طرف جوانا، وقالت فيه: «سوف نقوم بذلك، يا أبتي. وسوف نعقد قراننا الآن. هذا ما صرح به كينو قبل قليل»، وألقت نظرة ثاقبة على الجيران، الذين كانوا يهزون رؤوسهم بجلال.

قال القس: «إنه من السرور أن أرى أن أول تفكير لكم انصب في أمور جيدة. ليباركم الرب يا أبنائي». وبعد أن أنهى قوله هذا، استدار وغادر بهدوء، عبر جمهرة الناس، الذين أفسحوا له الطريق.

إلا أن قبضة يد كينو، عادت وأطبقت على اللؤلؤة بإحكام، وبان على كينو الارتياب، لأن أغنية الشيطان كانت تصدح في سامعيه، في مواجهة حادة مع موسيقى اللؤلؤة.

انفرط عقد الجيران، وأخذوا يتسربون مغادرين إلى منازلهم. جلست جوانا بجوار الموقد ووضعت إناءً كانت تغلي فيه حبات الفاصولياء، فوق جمرة صغيرة. قفز كينو باتجاه الباب، وألقى نظرة إلى الخارج. وكما هي العادة دائماً، شم رائحة أدخنة مواقد عديدة،

وكان بإمكانه رؤية النجوم عبر لطخات الضباب، وشعر برطوبة هواء الليل، لدرجة أنه قام بتغطية أنفه لحمايته منه. دنا كلب ضعيف إليه كان يقلب الرأي بجلال كأدميرال تعصف بسفينته الرياح، ومع العلم أن كينو كان ينظر إلى الأسفل باتجاهه، إلا أنه لم يره. لقد كان مشطوراً عبر الآفاق إلى عالمي البرودة والتوحد. شعر بنفسه وحيداً، دون حماية يصارع أسرار الليل، صارخاً بعنف على نسور حطت على الأشجار وعلى ضفادع التصقت بالطين، بانت كأنها جميعاً تحمل لحن الشيطان. ارتعش كينو قليلاً ورفع من سوية إحكام الدثار حول أنفه. كما أخذ يزيد الإحكام على اللؤلؤة، شاداً عليها بأصابع يده، ولم ينس أن يستمتع بملمسها الدافئ الناعم.

إلى الخلف منه، كان يسمع رَبتات جوانا على العجين، قبل أن تضعه على صينية ملقاة على الموقد، لتصنع منه كعكاً. في هذه اللحظة شعر كينو بالدفء والأمان، لأن عائلته كانت خلفه، كما قدم لحن أغنية العائلة من خلفه أيضاً، وهو أشبه بمواء هرة. والآن أتى الاستفهام حول المستقبل الذي سيؤول إليه، وهل سيستطيع أن يبتدعه. الخطة، هي شيء حقيقي، والأشياء المصممة هي أشياء مختبرة. تستطيع الخطط تحويل الرؤى إلى حقائق، تواكب حقائق أخرى، لا تتحطم أبداً، لكن من السهولة شن هجوم عليها. لذا كان مستقبل كينو حقيقة واقعة، ما عليه إلا أن يباشر ببنائه، في الوقت الذي توجد فيه قوى أخرى كثيرة على أهبة الاستعداء لتدميره، الأمر الذي يعرفه جيداً، وعليه أن يعد نفسه لمواجهة هذا الهجوم. والأمر الذي كان مؤمناً به أيضاً، هو أن الآلهة لا يحبون خطط الرجال، كما أنهم لا يحبون النجاح، الذي لا يأتي صدفة. كما أنه يعلم جيداً أن الآلهة تأخذ بثأرها من الرجل الذي تتوّج جهوده بالنجاح. بناءً على ذلك، كان كينو يخشى الخطط، إلا أنه إذا تسنى له تحقيق واحدة منها، فإنه لن يلجأ أبداً إلى تدميرها. وفي مواجهة الهجوم، كان كينو

جاهزاً لتحويل بشرته إلى جلد قاس لتحدي هذا العالم، فعيناه وعقله اختبرا الأخطار قبل ظهورها.

وفي هذه الأثناء، وهو واقف على الباب، رأى رجلين يقتربان، حمل أحدهما قنديلاً، كان ينير أقدام الرجلين والطريق الذي سارا عليه. استدار الرجلان، عندما وصلا إلى سياج منزل كينو الدغلي، تجاوزاه وتوجها إلى بابه. رأى كينو أن أحدهما كان الطبيب والآخر خادمه، الذي فتح البوابة هذا الصباح. وعلى الإثر شعر كينو بنيران تشتعل في رؤوس أصابع قبضته، التي ضرب بها هذه البوابة ضرباً قوياً.

قال الطبيب: «لم أكن في المنزل، عندما حضرتم إليّ هذا الصباح. والآن، في أول فرصة سنحت لي، قدمت لأفحص الطفل».

تجمد كينو على الباب مغلقاً إياه بجسمه، ونضح وجهه عن معالم كراهية عالية وعيناه كانتا تشتعلان ناراً وخوفاً في آن واحد، وذلك انعكاساً لمئات السنين من نير الاضطهاد.

قال كينو، موجهاً كلامه إلى الطبيب:

«الطفل بحالة حسنة تقريباً الآن».

ابتسم الطبيب، لكن عيناه في حجرتيهما الصغيرتين اللمفاويتي الخطوط، لم تبتسما.

قال الطبيب:

«أحياناً، يا صديقي، يكون للسعة العقرب أثر رجعي غريب. في هذه الحالات يكون التحسن ظاهرياً، وبعدها ودون سابق إنذار. بوف..!»، وبرم براطمه وتصنع منظراً يوحي بأن هذه الانتكاسة قد تحصل سريعاً، وحرف حقيبة العلاج الصغيرة السوداء، بحيث يصبح النور مسلطاً عليها، لكي يرى كينو ما في داخلها من أدوات، لمعرفته بأن عِرق كينو يحب الأدوات ويثق بها، مهما كانت خداعية. ثم قال.

«في بعض الأحيان..»».

وتابع الطبيب كلامه مستهزئاً:

« أحياناً قد تُشل رجلٌ وتُعمى عين أويلتوي ظهر. آه، أنا أعرف جيداً لسعات العقارب، يا صديقي، وأنا قادر على علاجها».

كبح كينو ثورته، وبدا كأن الخوف أخذ يسيطر عليه. هو لا يعلم شيئاً! وقد يكون هذا الطبيب هو الذي يعلم. كما أنه لم يحالفه الحظ ليجرب هذا الطبيب، ويعرفه إن كان من المهرة أم من الجاهلين. كان كينو يقع في الشرك أينما كان ذوي عرقه يقعون فيه دائماً، وسيبقون كذلك، إلى تلك اللحظة التي يكونون فيها متأكدين أن هذه الأشياء التي يُدعى أنها موجودة في الكتب، هي مخطوطة فيها حقاً. لن يخاطر، أبداً لن يخاطر بحياة أو بصحة كوواتيتو. وكان أن تنحى جانباً وسمح للطبيب وخادمه بالدخول إلى كوخه الدغلي.

نهضت جوانا عن الموقد، وتقهقرت إلى الخلف، عندما دخل الطبيب، وغطت وجه الطفل بإحدى نهايات شالها. وعندما توجه الطبيب إليها ومد يده، أخذت الطفل وشدته إلى حضنها وسلطت نظرة إلى كينو، حيث كان واقفاً والنار تستعر ظلالاً على وجهه.

أومأ كينو برأسه، الأمر الذي جعلها تسلم الطفل للطبيب.

أمر الطبيب الخادم قائلاً:

«ثبت الضوء!». وعندما ثبت الخادم القنديل عالياً، فحص الطبيب الجرح الذي بان على كتف الطفل، لبرهة من الزمن. بدا أنه انساب في تفكير عميق، استمر دقيقة واحدة، ومن ثم فتح جفني عيني الطفل وفحص حدقتيهما. وهز رأسه، في لحظة كان فيها كوواتيتو يصرخ في وجهه.

«يبدو أن الأمر كما ظننت»، قال هذا وأردف مفسراً: «وصل السم إلى الباطن، وسيخرب جسم الطفل خلال وقتٍ قصير. تقدم وانظر!». دفع أحد جفني الطفل وقال: «أنظر، هذا الازرقاق». نظر كينو بذهول ورأى فعلاً أن هنالك في الحقيقة ازرقاق خفيف. ولم يكن يعلم فيما إذا كان هنالك على الدوام هذا الازرقاق أم لا. لكن المصيدة كانت قد أكلت أكلها. وكينو لم يكن بإمكانه المجازفة.

أخذت عينا الطبيب تتجولان في محجريهما الصغيرين. «سوف أعطيه بعض الأشياء لمحاولة التخلص من السم»، قال هذا وسلّم الطفل إلى كينو.

من ثم، أخرج من حقيبته قنينة صغيرة فيها بودرة بيضاء وكبسولة من الجيلاتين. ملأ البودرة في الكبسولة وأغلقها بكبسولةٍ أخرى، بعدها أخذ يعمل برشاقة. أمسك الطفل وشده من شفته السفلى، الأمر الذي جعله يفتح فمه. وبواسطة أصابعه الغليظة وضع كبسولة في آخر تجويف الفم وعلى اللسان، حيث يستطيع الطفل بصقها، ومن ثم صب قليلاً من شراب البَلكة وقدمه لكوواتيتو، الذي شربه. فحص حدقتي الطفل ثانية، وزم شفتيه، وبدا كأنه أخذ يفكر.

في النهاية، أعاد الطفل إلى جوانا، وتوجه في حديثه إلى كينو: «أعتقد أن السم سيبدأ هجومه في جوف الطفل خلال ساعة من الزمان». «قد يستطيع الدواء إنقاذ الطفل من الأذى، وها أنا ذا سأعود بعد ساعة من الآن. لعلني أصبح هنا في الوقت المناسب لإنقاذه». أخذ نفساً عميقاً، وجمع نفسه وخرج من الكوخ، ولحق به خادمه حاملاً القنديل.

الآن، أصبح الطفل لدى جوانا تحت شالها، تلك التي بدأت تتمعن به باندهاش وخوف. اقترب كينو منها ونزع الشال عن وجه كوواتيتو، وأخذ يحدق في الطفل. حرك يده لينظر إلى ما تحت الجفن، في وقت شعر فيه بأن اللؤلؤة لا تزال في قبضته. ذهب باتجاه علبة كانت معلقة على الجدار، وأخرج منها خرقة من القماش. لف اللؤلؤة بالخرقة، واتجه إلى زاوية المنزل وحفر ثقباً صغيراً بواسطة أصابعه في أرض وسخة، ووضع اللؤلؤة في الثقب وغطاها وأجرى تسوية للمكان. ومن ثم توجه إلى الموقد، حيث كانت جوانا تراقب وجه الطفل.

الطبيب، ثانية في منزله، جلس على الأريكة وأخذ يراقب الوقت في ساعته. كان معشر قومه قد جلبوا له كمية قليلة ممتازة من الشوكولاتة والبسكويت الحلو والفواكه، وأخذ يحلق في الطعام بسخطٍ.

في بيوت الجيران، كان الموضوع الذي سيطر على النقاشات، والذي سيسيطر حتى وقت طويل، هو المجرى القادم للأحداث. كان الجيران يؤشر كل منهم للآخر إلى الحجم الذي كانت عليه اللؤلؤة، ويصطنعون ايماءات، تنم عن الجمال الذي هي عليه. ومن الآن فصاعداً، سوف لن يجعلوا، لا كينو ولا جوانا يغيبان عن أنظارهم، ليروا فيما إذا كان الغنى سيقلب رأسيهما، ذلك الثراء الذي يقلب رؤوس كافة الناس. كل واحد منهم كان يعرف السبب الذي جعل الطبيب يحضر. هو لم يكن شخصاً يجيد الخداع، لذا بدا أن الجميع قد فهموه تماماً.

خارجاً، وفي مصب النهر كان قطيع كثيف من الأسماك الصغيرة يتموج كاسراً عباب المياه، في محاولة منه للهروب من أسماك كبيرة توجهت إليه لتقتات منه. وفي المنازل كان الناس يسمعون هسهسة الأسماك الصغيرة وأصوات رشاشات المياه، التي تتركها الضخمة منها، فيما كانت المجزرة قائمة. ارتفع الندى خارج الخليج وأخذ ينشطر إلى أجمات وبقع، وكان يظهر على الأشجار الصغيرة على شكل نقاط مالحة. وأخذت فئران الليل تتنقل، من مكان إلى آخر، وبازات الليل تصطادها بصمت.

تقدم جرو هزيل، أسود الجلد مبرقع بين عينيه، إلى باب منزل كينو وألقى نظرة إلى الداخل. ولم يحرك قدميه الخلفيين إلا قليلاً، فتوقف، حينما بحلق به كينو، الأمر الذي جعل الأخير يزيح نظره بعيداً. لم يتجاوز الجرو عتبة المنزل، إلا أنه كان يراقبه باستمتاع هياجي، في الوقت الذي كان فيه كينو يتناول حبات فاصولياء مسلوقة من صحن، قام أخيراً بمسحه بواسطة كعكة، أكلها أخيراً، غاسلاً كل ذلك بجرعةٍ من البَلكة.

كان كينو قد انتهى من تناول كأس البَلكة وأخذ يلف سيجارة، عندما تكلمت جوانا بحدة قائلة:

«يا كينو!».

نظر إليها، ومن ثم نهض فجأة واتجه نحوها سريعاً، لأنه رأى الخوف يرتسم في عينيها. وقف قبالتها ونظر إلى الأسفل، إلا أن النور كان باهتاً جداً. زود الموقد بحزمة من أغصان الأشجار لكي يصنع شعلة، ليصبح قادراً على رؤية وجه كوواتيتو. كان وجه الطفل تعتريه الحمى وكان حلقومه يترنم وهنالك قليل من اللعاب الكثيف يسيل من بين شفتيه. وأخذت عضلات معدته بالتشنج، وبدا أن الطفل في حالة مرض شديد.

ركع كينو إلى جوار زوجته، وقال:

«يبدو أن الطبيب علم بذلك».

وكان هذا القول موجهاً لنفسه، كما هو موجه لزوجته، لأن شكوكاً دارت في خلده ، عندما تذكر تلك البودرة البيضاء. أخذت جوانا تنتقل من جهة إلى أخرى، وهي توتوت بأغنية العائلة القصيرة، لظنها أنها قد تبعد الخطر، في وقت كان فيه الطفل يتقيأ ويتلوى بين ذراعيها. والآن بدأت الظنون تحوم في خلد كينو، وأخذت تصدح في مسامعه موسيقى الشيطان، بصورة أبعدت فيها لحن أغنية جوانا.

انتهى الطبيب من تناول الشوكولاتة، وأجهز على آخر القطع من الكعكة الحلوة. مسح أصابعه بمنديل المائدة. نظر إلى ساعته، ونهض حاملاً حقيبته الصغيرة.

تنقلت أخبار مرض الطفل سريعاً بين المنازل الدغلية، لأن الاعتلال كان كسيف إقليدس، كعدوٍ معلق فوق رؤوس الفقراء، يأتي في المرتبة الثانية بعد الجوع. بعضهم أخذ يقول بهدوء:

«الحظ، أنت ترى، إنه يجلب أقسى الأصدقاء».

أومأوا برؤوسهم ووقفوا، وأخذوا يتوجهون إلى منزل كينو. اندفع الجيران وهم ملثمون في الظلام حتى وصلوا إلى منزل كينو، وتجمهروا فيه، مرة أخرى. أخذوا يتفرسون في المكان وهم واقفون، وبعضهم

أسدى بعض التعليقات حول الحزن الذي يحصل في لحظات الاستمتاع، وقالوا سوية:

«جميع الأشياء في حوزة الرب».

اندفعت العجائز إلى جوانا، لمحاولة تقديم أي مساعدة لها إن أمكن، أو السلوى إذا لم يكن بالإمكان.

ـ بعدها، ها هو الطبيب يندفع إلى الداخل، مَتبوعاً بخادمه. فرّق العجائز، كتفريقه للدجاجات. أخذ الطفل وفحصه، واستشعر رأسه. وقال بعد ذلك:

«باشر السم يفعل فعله»، «أظن أنني أستطيع معالجة الطفل. سوف أحاول بذل قصارى جهدي».

طلب كأس ماء، ووضع فيه ثلاث نقاط من الآمونيا، وصب السائل المتشكل في فم الطفل، بعد أن فتحه عنوةٍ. بقبق الطفل وأخذ يصرخ تحت العلاج. راقبته جوانا بعينين يسكنهما الفزع. قال الطبيب وهو يعمل:

«إنه من حسن الحظ، أنني أعلم الكثير عن سموم العقارب، فلو لم أكن كذلك..».

وهز كتفيه ليرى ما سيحدث.

إلا أن الشكوك لا زالت تخيم على كينو، الأمر الذي جعله لا يزيح نظره عن حقيبة الطبيب المفتوحة، وعن زجاجة البودرة البيضاء. وشيئاً فشيئاً، أخذ التشنج يختفي تدريجياً، وبدا كأن الطفل يستعيد توازنه بين ذراعي الطبيب. وبعدها تنهد كوواتيتو وسيطر عليه نوم عميق، لأنه كان منهكاً من التقيؤ.

نقل الطبيب الطفل النائم إلى ذراعي جوانا، قائلاً:

«سوف تتحسن حالته الآن«. «لقد ربحت القتال».

حينها نظرت إليه جوانا بإعجاب وامتنان.

كان الطبيب يغلق حقيبته، حين قال موجهاً الخطاب إلى كينو:

« متى تظن أن باستطاعتك تسديد هذه الفاتورة؟».

أجابه كينو قائلاً:

« عندما سأبيع لؤلؤتي، سوف أدفع لك».

سأله الطبيب، انطلاقاً من حب الفضول:

« أ لديك لؤلؤة؟ أهي لؤلؤة جيدة؟».

عندها دخلت جوقة الجيران على هذا الخط:

« لقد عثر على جوهرة العالم»، هذا ما رددوه سوية بصوت عال، وكل منهم يؤشر على ذلك بإشارة من الأصابع الأربعة لكل يد مع الإبهام، دلالة على ضخامة حجمها.

أضافوا قائلين:

« سيصبح كينو رجلاً ثرياً»، « إنها لؤلؤة ليس لها مثيل، ولم يكن لها أبداً».

نظر الطبيب متعجباً، وقال:

«لم أسمع عنها. هل تحتفظ باللؤلؤة في مكان أمين؟ فربما تريد أن تحتفظ بها في خزانتي الحديدية؟».

أومأ كينو بحاجبيه أن لا، في الوقت الذي وتوت بشفتيه قائلاً:

«إنها في أمان». «غداً سوف أبيعها، وبعدها سأدفع لك».

هز الطبيب كتفيه، في وقت لم تكن فيه عيناه النديتان تبرحان عيني كينو. علم جيداً أن اللؤلؤة مطمورة في مكان ما في المنزل، ولا بد لكينو أن يخطف نظره إلى ذلك المكان الذي طمرها فيه.

قال الطبيب:

«سوف يصبح من العار أن تُسرق اللؤلؤة قبل أن تتمكن من بيعها».

وفي هذا الوقت شاهد عيني كينو تمعنان النظر في مكان ما من أرضية المنزل الدغلي. وعندما غادر الطبيب وتبعه الجيران، كل على انفراد، متوجهين إلى منازلهم، كوَّر كينو جسمه بالقرب من بعض الحطبات الملتهبة في الموقد وأخذ يصغي إلى أصوات الليل، والأصوات

الناعمة لقفزات الأمواج الصغيرة على الشاطئ، وإلى حركة لجوء الكلاب إلى حواضرها وصرير النسيم، الذي يتخلخل عبر الفراغات في جدران المنزل، والحديث الناعم للجيران الصادر عن منازلهم في القرية. فهؤلاء الناس لا يأتيهم النوم العميق، كانوا ينامون على مراحل، خلالها كانوا يستيقظون ويتبادلون بعض الأحاديث، ومن ثم يتوجهون للنوم ثانية. بعد مضي قليل من الوقت، نهض كينو وتوجه إلى عتبة الدار.

استنشق كينو النسيم العليل، وأخذ يصغي لأي صوت غريب، لمتسلل أو دبيب حيوانات، كما تفحصت عيناه الظلام، في الوقت الذي كانت فيه موسيقى الشيطان تصدح في رأسه، كما كانت مشاعر الخوف والرهبة تسيطر عليه. وبعد أن تفحص الليل بما يملكه من حواس وخبرة، شق طريقه إلى الزاوية التي كانت اللؤلؤة مطمورة في مكان منها، وحفر في المكان وجلب اللؤلؤة إلى حصيرة نومه، وتحت هذا الفراش حفر حفرة صغيرة أخرى في الأرضية القذرة واضعاً فيها اللؤلؤة وطمرها ثانية.

كانت جوانا جالسة بالقرب من الموقد، تراقب زوجها بعيون مستفهمة، وعندما طمر لؤلؤته، سألته قائلة:

« ما الذي جعلك خائفاً؟».

بحث كينو عن جواب صحيح، وأخيراً قال:

«الجميع».

وكان يشعر بأن صدفة كبيرة قاسية تحيق به.

بعد برهة من الزمن، استلقيا سوية على حصيرة النوم، ولم تضع جوانا هذه الليلة الطفل في صندوقه، بل أخذت تهدهده في حضنها، بعد أن غطت وجهه بشالها. وأخيراً انقطع الضوء الصادر عن الجمرات في الموقد.

إلا أن عقل كينو كان يلتهب، حتى وهو نائم، وانتابه حلم بأن كوواتيتو يقرأ، وبأن أحد رجال قومه سيعلمه بحقيقة الأشياء. ورأى

في حلمه أن كوواتيتو، يقرأ في كتاب حجمه بحجم المنزل، أحرف كلماته كانت بحجم الكلاب، كما كانت الكلمات تتراقص وتلعب على صفحات هذا الكتاب. وبعدها خيم ظلام دامس على الصفحة المفتوحة، ومع الظلام قدمت موسيقى الشيطان ثانية، وأخذ الاهتياج يسيطر على كينو وهو في الفراش، الأمر الذي جعل عيني جوانا تستيقظان في الظلام. بعدها نهض كينو في حين كانت موسيقى الشيطان تنبض فيه، ومن ثم عاد فاستلقى في الظلام وإنذار يصدح في سامعيه.

بعدها وصل صوت ناعم من زاوية المنزل، يعطي إحساساً بأن هنالك حركة اختلاس صغيرة على شكل لمسات أرجل على الأرض مضافاً إليها صوت تنفس بشري محبوس، يكاد لا يسمع. حبس كينو أنفاسه، لكي يصبح قادراً على الإصغاء. لبرهة من الوقت، لم يصل أي صوت من زاوية المنزل على الإطلاق، الأمر الذي جعل كينو يشعر أن الصوت الذي سمعه من قبل، كان متخيلاً. إلا أن يد جوانا زحفت باتجاهه محذرة إياه، وبعدها عاد الصوت ثانية! إنها أصوات همسات أقدام على أرض جافة، وخربشات أصابع في التربة.

والآن، أخذ خوف مسعور يخترق صدر كينو، ومع الخوف قدم الاهتياج، الأمر الذي يحدث دائماً. باشرت يد كينو تتلمس صدره، حيث كانت المدية معلقة في خيط. وفجأة لمح قطة غاضبة تتمشى في الليل، باحثة عن شيء ما، كان يعلم أنه مطمور في ركن المنزل. تلمس كينو خرقة قماش، وطعنها بمديته، لكن تبين أنه أخطأ الهدف، وفي المرة الثانية أحس كأن المدية اخترقت قطعةً من القماش. وشعر حينها أن رأسه يكاد ينفجر.

سُمعت بعض الهسهسات الناعمة على العتبة وأصوات خطوات تركض خلال دقيقة واحدة، وبعدها خيم صمت مطبق.

شعر كينو كأن هناك دم دافئ يجري إلى الأسفل من جبهته، واستطاع أن يسمع صوت جوانا تناديه بصوتٍ خافت:

«كينو!. يا كينو!». في هذه الأثناء اعترت جسمه رعشة سريعة من البرد، وداهمه الاهتياج، وأجابها قائلاً:

«إنني بخير. غادرنا ذلك الشيء».

تحسس طريقه إلى حصيرة النوم. أما جوانا فقد عادت لتنشغل بإشعال النار في الموقد. أماطت اللثام عن الجمرات ووضعت بعض سيقان الذرة فوقها، وأخذت تُهوي هذه الجمرات من أعلى السيقان، الأمر الذي جعل ضوءاً رفيعاً يتراقص صاعداً من الموقد. ومن ثم، ومن موقع سري أحضرت جوانا قطعة صغيرة لشمعة كنسية وأشعلتها من شعلة النار، ووضعتها فوق حجر الموقد. كانت تقوم بعملها بسرعة، مدندنة أثناء حركتها. غمست طرف شالها بالماء ومسحت به بقع الدماء التي سالت على جبهة كينو.

«لا شيء»، هذا ما قاله كينو، في الوقت الذي كانت نظرات عينيه الباردة وصوته الصارم، يولدان الكراهية في صدره.

الآن وصل التوتر الذي كان ينمو في جوانا، إلى درجة الغليان، وأخذت شفتاها بالانكماش، وبدأت تصرخ:

«يا له من شيء شيطاني!» «إن هذه اللؤلؤة توأماً للإثم. سوف تدمرنا».

وعادت تصرخ بقوة أكبر:

«ارمها بعيداً، يا كينو، دعنا نحطمها بالأحجار. دعنا نطمرها في مكان ما، وقم بنسيانها. دعنا نرميها ثانية إلى البحر. لقد جلبت لنا الشيطان. كينو، يا زوجي، إنها سوف تدمرنا». ومن خلال ضياء النيران كان يبدو أن شفتيها وعينيها تشعان خوفاً.

إلا أن وجه كينو كان ينم عن تصميم، وشاركه بذلك إرادته وعقله. وأجاب قائلاً:

«إنها فرصتنا الوحيدة». «يجب أن يذهب ابننا إلى المدرسة. وسوف يكسر هذا المستنقع الذي رُبطنا فيه».

إلا أن جوانا، بقيت على موقفها مرددة:

«سوف تدمرنا جميعاً»، «وصولاً حتى ابننا».

قال كينو:

«هذا هراء!. لا تتكلمي أكثر من ذلك!. في الصباح سوف نبيع اللؤلؤة، وبعدها سيكون الشيطان قد غادرنا، وستبقى الأشياء الجيدة. إن ما تقولينه هراء يا زوجتي العزيزة».

وأخذت عيناه الداكنتان تبحلقان في النار المتصاعدة خفيفاً، وللوهلة الأولى لم يكن يدري أن المدية لا تزال في قبضته، فرفع النصل وتمعن به ومسح الخط الرفيع من الدماء الذي علق على الفولاذ المصنوع منه. وللحظة كان يُظن أنه سيمسح النصل ببنطاله، لكنه غرز السكين في الأرض، التي قامت بتنظيفها.

بدأت الديوك البعيدة تصيح، وأخذ الهواء يتغير والفجر يبزغ. بدأت رياح الصباح تداعب المياه عند مصب النهر وتصفر وهي مخترقة أشجار المنغروف، وأخذت موجات صغيرة ترتطم على الشاطئ الوحلي، بوتائر متزايدة. رفع كينو حصيرة النوم، وحفر في المكان الذي طمر فيه اللؤلؤة واستخرجها واضعاً إياها في مواجهته وأخذ يتمعن بها.

أخذ جمال اللؤلؤة يومض ويشع في الضياء الصادر عن الشمعة الكنسية، بطريقة جعلت عقله يختال بجمالها. كانت محببة، وناعمة، إلى درجة أنها كانت تصدر موسيقى خاصة بها، إنها موسيقى الوعود والبهجة والسرور، إنها ضمان لمستقبل من الراحة والأمن. إنها تلقي الدفء على الصفاء وتعِد بكمادات شافية المرض ثانية، وجدران تعزل عن الإهانات. إنها تغلق الأبواب في وجه الجوع. وفي اللحظة التي باشر كينو يسمعها، أخذت عيناه تروقان ووجهه يعود إلى صفائه. وأخذ يرى الخيال الصغير للشمعة الكنسية ينعكس على سطح اللؤلؤة الناعم، وسمع ثانية موسيقى قاع البحر المحببة إليه، لحن الضوء الأخضر المتناثر في قاع البحر. اختلست جوانا نظرة إليه، فرأته مبتسماً. وبما أنه كان لهما طريق واحد يسيران عليه، شيء واحد وغرض واحد، جاملته وأخذت تبتسم.

وبدأا يومهما بالأمل.

4

إنه مدهش، ذلك الأُسلوب، الذي تحافظ به المدن الصغيرة، على ذاتها وعلى جميع وحداتها المكونة. وإذا أقدم كل فرد، رجل أو امرأة، طفل أو رضيع، على التصرف على أساس نموذج معروف ولم يَقُم بكسر الحواجز ولم يختلف مع أي كان أو مع السائد، بأية طريقة من الطرق، ولم يُصب بمرض، ولم يُعرض سلامة المدينة للخطر، ولا الطريقة التي ينساب بها عقلها، عندها فإن هذه الوحدة ستختفي ولن تعد قط تسمع عنها شيئاً.

لكن، دع أحد الرجال يتمرد قليلاً على التفكير السائد أو العرف أو أن يتجاوزهما ويسير على نموذج آخر، بعد أن يكون قد اعتنقه، عندها سيدق جرس الإنذار في أعصاب سكان البلدة، وفي ذات الوقت سيقرع هذا الإنذار في جميع وسائل الاتصال والحركة، وفوق جميع خطوط جهاز المدينة العصبي، عندها سيتم اتصال كل وحدة بجميع الوحدات الأخرى.

لذا، فإنه في بلدة لاباز أصبح معروفاً منذ الصباح الباكر في كل جزء من أجزاء المدينة، بأن كينو في طريقه إليها اليوم، كي يبيع لؤلؤته. طبعاً، كان هذا الأمر معروفاً بين جيرانه في الأكواخ الدغلية، وبين صيادي اللآلئ، وبين أصحاب البقاليات الصينيين، وفي الكنيسة، لأن صبيان مذبح الكنيسة كانوا يوتوتون بذلك. دار هذا الحديث مطولاً بين الراهبات، كما كان حوله يثرثر الشحاذون، الذين اتخذوا لهم مقراً عند بوابة الكنيسة، الذين أخذوا يتشاورون في الطريقة التي يكونون فيها أول من يشهد على هذه الصفقة، لجني الثمار الأولى منها. كان الصبيان يستمعون إلى هذه الأخبار بانفعال

كبير، كما علمت غالبية تجار اللؤلؤ بهذا الأمر أيضاً، وعندما قدم النهار، كان كل تاجر يجلس في متجره منفرداً وأمامه صينية صغيرة مبطنة بقطعة سوداء من المخمل الناعم، وكل منهم أخذ بتدريج اللآلئ التي بحوزته مستخدماً أصابعه، مفكراً في النصيب الذي سيؤول إليه اليوم من هذه الصفقة.

كان من المفترض أن يعتقد المرء أن تجار اللؤلؤ هؤلاء، يعملون كل بمفرده، يتنافسون على صفقات شراء اللآلئ التي يجلبها الصيادون. كان الأمر كذلك في وقت من الأوقات. إلا أن الأسلوب كان بمثابة أسلوب ضار وشديد التبذير، لا سيما حينما يستخدم في تقدير قيمة اللآلئ النادرة، الذي يتوجب فيها دفع أثمان عالية جداً لأصحابها من الصيادين. لذا كان يتوجب وضع حد لهذا الأُسلوب المتطرف. وفي النتيجة، نرى أنفسنا أمام تاجر لؤلؤ واحد، له أيادٍ عدة، وأن الرجال الجالسين في مكاتبهم بانتظار كينو، كانوا على دراية مسبقة بالثمن الذي يتوجب عليهم عرضه، والكيفية التي تتم بها المناقصة، وبالأسلوب الذي يتوجب على كل منهم اتباعه. وعلى الرغم من أنه ليس لهؤلاء الرجال أية أرباح تضاف إلى مرتباتهم، فإن ما كان يدفعهم لهذا النشاط هو الإثارة، التي تتولد عن عملية الصيد عند القائمين عليها أو متتبعينها، بالإضافة إلى الشعور الذي يتولد عند الإنسان، في تلك الأحيان التي يستطيع فيها تخفيض قيمة شيء ما إلى الحد الأدنى. بالإضافة إلى أن الطبيعة البشرية تُسيِّر البشر إلى أن يبذلوا قصارى جهدهم في الأعمال التي يقومون بها. لذا فإن مشتري اللآلئ، وبغض النظر عن أية مكافأة قد يحصلون عليها، إنهم يشعرون بسعادة غامرة في كل مرة يشترون فيها لآلئ بأسعار أخفض من قيمتها الحقيقية بكثير.

كانت الشمس صفراء حادة في ذلك الصباح، جلبت معها رطوبة مصب النهر والخليج وعلقته في غيوم وامضة في الهواء، لذا كان الهواء يتذبذب والرؤية واهية. تعلق المشهد في الهواء إلى الشمال من

المدينة، مشهد جبل، كان يبعد أكثر من مائتي ميل، منحدراته العديدة ابتلعتها أشجار الصنوبر الكثيفة، وهناك صخرة ضخمة على شكل نتوء ارتفع فوق خط الغابة.

في صباح هذا اليوم، كانت القوارب مضطجعة على الشاطئ بشكل متراصف، فالصيادون لم يخرجوا اليوم إليها للقيام برحلة بحرية بحثاً عن اللآلئ، لأنهم كانوا يرقبون حدوث أمور كثيرة، ورؤية أشياء كثيرة، عندما سيعود كينو، بعد أن يكون قد باع اللؤلؤة الضخمة.

في المنازل الدغلية المترامية على الشاطئ، طالت جلسات جيران كينو حول موائد الإفطار، حيث كانوا يتحدثون عن الذي سيفعلونه، فيما إذا عثروا على اللؤلؤة. أحد الرجال قال إنه كان سيقدمها هدية للبابا المقدس، القابع في روما. قال آخر بأنه كان سيتعاقد على قداسات للقيام بها على أرواح جميع أفراد عائلته لألف سنة قادمة. وغيره فكر بأنه سيقوم بتوزيع النقود بين فقراء بلدة لاباز. ورجل رابع صرّح بأنه سيقوم بكل الأشياء الجيدة، التي يمكن أن يقوم بها أحد ما، يمتلك مالاً، حصل عليه ثمناً للؤلؤة، وسيقدم جميع الصدقات الواجبة المفيدة، ويعتق أكبر عدد ممكن من العبيد. أمل جميع جيران كينو، بأن الثروة المفاجئة لن تتمكن من قلب رأس كينو، وسوف لن تخلق منه رجلاً على شاكلة الأثرياء، وسوف لن تجرفه إلى دروب شيطانية تعج بالكراهية والجشع والتجبر. وبما أن كينو كان رجلاً طيباً، فسوف يصبح من العار أن تستطيع لؤلؤة تدميره. «تلك الزوجة الجيدة جوانا»، هذا ما كان الجيران يرددونه، مضيفين إلى ذلك: «وهذا الطفل الجميل كوواتيتو، وسواه ممن سيأتون. ما المصيبة التي ستحل، إذا تمكنت من تدميرهم جميعاً».

أما بالنسبة لكينو وجوانا، فكان هذا الصباح، صُبح الصباحات القليلة المهمة في حياتهما، لا يعادله سوى صباح ذلك اليوم الذي وُلد فيه طفلهما الأول. جاء هذا اليوم ليصبح يوماً من تلك الأيام الأخرى، التي أصبحت معلماً. لذا فإنهم سيقولون لاحقاً:

«جرى هذا قبل سنتين من تاريخ بيعنا للؤلؤة»، أو:

«جرى ذلك بعد ستة أسابيع من التاريخ الذي بعنا فيه اللؤلؤة».

أخذت جوانا بعين الاهتمام هذا الاعتبار، وكأن هذا الإحساس كان يصلها محمولاً على الرياح، لذا فإنها ألبست كوواتيتو ملابساً، كانت قد أعدتها له ليرتديها في حفلة تعميده، عندما يصبحون يمتلكون نقوداً كافية لدفع تكاليف مثل هكذا حفلات. كما أقدمت جوانا على تجديل شعرها وتصفيفه وربطت نهاياته بأشرطة حمراء، بعد أن عقدتها، وارتدت التنورة والصدرية اللتان ارتدتهما في حفلة الزواج.

أصبحت الشمس في ربع السماء، عندما أصبحوا جاهزين. ارتدى كينو ملابس بيضاء رثة، كانت في الحد الأدنى نظيفة، وظن أن هذا اليوم سيكون اليوم الأخير في استهلاك هذه الثياب الرثة. فغداً، أو حتى اليوم مساءً سوف يقوم بشراء ملابس جديدة.

كان الجيران يراقبون باب منزل كينو، من خلال الشقوق المنتشرة في جدران منازلهم، وهم أيضاً كانوا قد انتهوا من ارتداء ملابسهم و أصبحوا جاهزين أيضاً، مع العلم أنه لم يجر أي اتفاق أو تشاور على أن يكونوا في رفقة كينو وجوانا، حينما يذهبان لبيع اللؤلؤة. كان هذا متوقعاً، و هو عبارة عن لحظة تاريخية، فإذا لم يذهبوا فسوف يصابون بالجنون، ، وسوف تسجل عليهم على أنها إشارة لا تمت إلى الود بصلة.

وضعت جوانا الشال على رأسها، والتقطت إحدى نهاياته ومررته من تحت مرفقها الأيمن وجمعته في يدها اليمنى، الأمر الذي شكل أرجوحة معلقة تحت ذراعها، وفي هذه الأرجوحة الشبكية وضعت كوواتيتو، بذلك الشكل الذي يُمَكنه من مشاهدة كل شيء وربما ليتذكر. اعتمر كينو على رأسه قبعته القشية الكبيرة واستشعر وضعها براحة يده ليتأكد من أنها في المكان المناسب، ليست مائلة إلى الخلف أو جانباً أو إلى الأمام، كما يفعل الرجال غير المتزوجين أو

المتهورون، وهي في الوقت ذاته ليست قبعة مسطحة ليرتديها، كما يقوم بذلك الرجال المسنون، بل جعلها منحنية من الأمام قليلاً، لكي يبدو جاداً ونشيطاً وغاضباً إذا تطلب الأمر. ومن خلال هذه الثنية التي يصنعها الرجل في قبعته، يُمكن رؤية الكثير. وضع كينو قدميه في صندله وربط سيراه المنطلقين من كعبيه. كانت اللؤلؤة ملفوفة في قطعة من جلد الأيل، وُضعت في كيس من الجلد المدبوغ وكان هذا الكيس قد وضعه كينو في جيب قميصه. وأخيراً بسط دثاره ووضعه حول كتفيه، وأصبحوا الآن جاهزين للانطلاق.

خرج كينو من المنزل بخطوات متأدة، فلحقت به جوانا، حاملة كوواتيتو. وعندما وصلت خطواتهما إلى نهاية ممشى حي الأكواخ الدغلية المغمور بمياه الطوفان، وبداية الطريق المتوجه إلى البلدة، كان الجيران قد انضموا إليهما، كأن الأكواخ كانت قد قذفت رجالها والأبواب تقيأت الأطفال. لكن وبسبب جدية المسألة، كان هنالك رجل واحد يسير بمحاذاة كينو وهو شقيقه جون توماس.

أخذ جون يحذر شقيقه قائلاً:

«يجب أن تكون حريصاً، ولا تدعهم يخدعونك». وأضاف كينو إلى قول شقيقه:

«حريصاً جداً».

إلا أن جون توماس علق قائلاً:

«نحن لا نعلم الأثمان الحقيقية التي تدفع في الأماكن الأخرى. كيف يُمكننا معرفة الثمن الأفضل، إذا كنا لا نعرف، ما الذي يدفعه تجار اللؤلؤ مقابل هكذا لؤلؤة في مكان آخر».

قال كينو:

«أجل، هذا صحيح.لكن، كيف بإمكاننا أن نعرف؟ نحن نقيم هنا، وليس هناك».

وفي أثناء مسيرهم باتجاه المدينة، أخذت الجمهرة تزداد خلفه، إلا أن جون توماس، تابع الحديث والعصبية المفرطة تبدو عليه:

«قبل أن تُخلق، يا كينو، فكر كبار السن منا بالطريقة التي تمكنهم من الحصول على أكبر كمية من الأموال، ثمناً للآلئهم. ظنوا أنه من الأفضل أن يكون لهم عميل دائم، يأخذ جميع اللآلئ إلى العاصمة ويبيعها هناك، ويحتفظ فقط بنصيبه من الأرباح».

هز كينو رأسه، وقال رداً على ذلك:

«أعلم ذلك، ويبدو أنها كانت فكرة صائبة».

وتابع جون توماس رواية القصة قائلاً:

«وعندما وجدوا مثل هذا العميل، وبعد أن جمعوا له اللآلئ وسلموها له، لم يروا وجهه ثانية، ولم يسمع أحد عنه شيئاً، وهكذا ضاعت اللآلئ. بعدها عثروا على رجل آخر، وثقوا به أيضاً، والآخر لم يسمعوا عنه شيئاً بعد أول عملية تسليم أجروها. لذا فإنهم هجروا هذا الأسلوب وعادوا يتعاملون بالأسلوب القديم».

قال كينو:

«أعلم بذلك. كنت قد سمعت والدي يتحدث عن هذا الأمر. كانت فكرة جيدة، إلا أنها كانت منافية للدين، الأمر الذي وضحه والدي تماماً. كان ضياع اللآلئ عبارة عن جولات عقابية لأولئك الذين حاولوا التخلي عن محطتهم. ووالدي كان قد أوضح هذه الفكرة بأن أي رجل أو امرأة يشبه أو تشبه الجندي الذي يرسله الله لحراسة جزء من أجزاء قلعة الكون، بعضهم خلف المتاريس وآخرون إلى مناطق عميقة ومظلمة في الداخل، خلف الأسوار. إلا أن كلاً منهم يجب أن يكون مخلصاً لواجبه ويتقيد بحراسة المكان الذي خصص له. ولا يتوجب عليه مغادرته إلى مكان آخر من القلعة، وإلا ستتعرض القلعة إلى أخطار جهنمية».

أردف جون توماس:

«كنت قد سمعته وهو يتلو هذه الموعظة. كان يكررها كل عام».

كان الشقيقان، وهما سائران جنباً إلى جنب، ينظران شزراً بعيونهم، كما كان أجدادهما وأجداد أجدادهما يفعلان منذ أربعمائة

عام، منذ أن قدُم الغرباء وفرضوا سيطرتهم عليهم بالنار والدم. وخلال الأربعمائة عام لم يتعلم قوم كينو سوى طريقة واحدة للدفاع، هي النظر شزراً وبرم الشفاه والطاعة. ولا شيء كان يستطيع تحطيم هذه الجدران، وهكذا بقي الجميع خلفها.

كان تجميع قوى هذا القوم مستحيلاً، ومن هنا جاءت أهمية هذا اليوم. كان الكبار يُخرسون الأطفال الذين يُبدون نزوعاً لإثارة الضجة والنزاع والعراك وشد الشعر وخطف القبعات ورميها في الهواء. كان هذا اليوم عظيماً،، لدرجة أن عجوزاً قدم ليشاهد ذلك، وكان يمتطي كتفي ابن اخية القويتين. غادر الحشد الأكواخ الدغلية ودخل مدينة الحجارة والجص، حيث الشوارع أكثر عرضاً، وكانت هناك أرصفة ضيقة على طول الأبنية. وعندما عبر هذا الحشد الكنيسة، وكما حدث سابقاً، انضم إليه فصيل المتسولين، وكان أصحاب البقاليات يراقبون المشهد، أثناء مرور الحشد من أمام بقالياتهم، أما أصحاب الصالونات الصغيرة فقد فقدوا زبائنهم مما جعلهم يغلقون محالهم وينضمون إلى الحشد. وفي هذه الأثناء، كانت الشمس تضرب بقوة وبشكل مائل على الشوارع، الأمر الذي جعل حتى الأحجار الصغيرة تطلق ظلالاً طويلة على الأرض.

كانت أخبار اقتراب مسيرة الحشد تسبقه، الأمر الذي جعل تجار اللؤلؤ يتسمرون في مكاتبهم الصغيرة والمظلمة وهم في حالة يقظة واستنفار. وضعوا على الطاولات التي يجلسون خلفها أطباقاً من الأوراق، ليكونوا جاهزين للعمل، في اللحظة التي يصل فيها كينو. كما خبؤوا لآلئهم في أدراج الطاولات، لأنه ليس من مصلحتهم أن يتركوا لآلئ وضيعة إلى جانب تلك الجميلة التي سيجلبها كينو. وبين هذا وذلك، كانت كلمة "الفاتنة" التي وصفت بها لؤلؤة كينو، قد وصلت إلى مسامعهم. انتشرت مكاتب تجار اللؤلؤ في شارع تجاري واحد ضيق، تميزت جميعها بنوافذ ذات درفاتٍ حديدية، فيها عوارض

خشبية، تحجب النور عن الداخل، إلى تلك الدرجة التي فيها لا يسمح إلا لوهج طفيف من النور بالدخول إليها.

رجل بدين بطيء الحركة، جلس في مكتبه منتظراً. بدا بوجه لطيف كقديس، وكانت عيناه تشعان "طيبة". ظهر أن هذا الرجل هو الداعية لمثل هكذا صباحات جيدة، والذي اتصف بطريقة في تحريك يديه، كأنه في احتفال رسمي، وذو روح مرحة، لدرجة أنه يعرف جميع النكات، التي تطرد الهموم بعيداً، إلا أنه وفي منتصف جوقة الضحك التي كان يصنعها، قد يقوم بتذكيرك بعمتك المتوفاة، فتترقرق عيناه دمعاً حزناً على خسارتك هذه. في هذا الصباح، قام هذا الرجل بتزيين طاولته بوردة وضعها في مزهرية مع حزمة من قرمز الخبيزة، مركونة إلى جانب صينية اللآلئ المغطى بقطعة مخمل سوداء. كانت حلاقة ذقنه ناعمة جداً، لدرجة تظن فيها أن شعراته اقتلعت من جذورها، كما كانت يداه نظيفتان، وأظافر أصابعها مقلمة جيداً. ترك هذا الرجل باب مكتبه مفتوحاً منذ الصباح. كانت تصدر عنه دندنات مخترقة أصوات أنفاسه، بينما أخذت يده اليمنى تتمرن على حركات الرشاقة وخفة اليد. دحرج قطعة نقود فوق براجم أصابعه، وجعلها تارة تظهر وأخرى تختفي، جاعلاً إياها تدور وتتلألأ. كما أخذت القطعة النقدية تومض في المشهد، وبذات السرعة الومضية تغيب عنه، في وقت كان فيه هذا الرجل لا يراقب تمثيليته هذه. كانت أصابعه تقوم بأدوارها بصورة آلية وبدقة متناهية، بينما كان صاحبها يدندن لذاته، ويسترق نظرات خاطفة إلى الباب. أخيراً سمع دبيب خطوات الحشد المقترب، فأخذت أصابع اليد اليمنى تعمل بتسارع، أسرع فأسرع. وفي الوقت الذي أخذ فيه جسم كينو يملأ فتحة الباب، أخذت قطعة النقود بالتلاشي رويداً رويداً، حتى آلت إلى الاختفاء.

«صباح الخير يا صديقي»، هذا ما قاله الرجل البدين، الذي أردف يقول:

«ما الذي أستطيع أن أصنعه من أجلك؟».

تفحص كينو هذا المكتب الصغير المعتم، ليدرب عينيه على المكان، بعد أن تجولتا طويلاً في أنوار باهرة. لكن عيني التاجر قد أصبحتا ثاقبتين ووحشيتين لا تطرفان، كعيني صقر، بينما كان وجهه يبش ترحيباً. وبصورة خفية، كانت يده اليمنى تتدرب بقطعة النقود تحت الطاولة.

خاطبه كينو قائلاً:

«لديّ لؤلؤة».

نفخ جون توماس، الذي كان واقفاً إلى جانبه، قليلاً، بعد سماعه هذا الإعلان المكبوح. تجمهر الجيران في الممر حول باب المكتب، كما تعمشق خط من الأطفال على قضبان النافذة وأخذوا ينظرون عبرها. وعدد آخر من الأطفال كان يراقب المشهد، الجاري من بين ساقي كينو، وهم متكئون على الأرض على ركبهم وأيديهم.

«قلت لي أن لديك لؤلؤة». هذا ما قاله المتعامل، الذي أردف يقول:

«في بعض الأحيان، يجلبها الرجال بالدزينات. حسناً! دعنا نرى لؤلؤتك. سوف نقوم بتقدير قيمتها، ونقدك السعر الأفضل». ولم تتوقف أصابعه عن اللعب بقطعة النقود.

الآن، عرف كينو غريزياً ما تركه من آثار دراماتيكية. وببطء قام بإخراج كيس الجلد، وببطء شديد سحب منه خرقة جلد الغزال الوسخة وفك لفاتها وحرر اللؤلؤة منها، واضعاً إياها على الصينية المغطاة بقماش مخملي أسود، وانتقلت عيناه لتتركزا على وجه التاجر. إلا أنه لم يلتقط أية إشارة، أو حركة، فوجه التاجر لم يعتريه أي تغيير، فيما عدا توقف يده الخفية عن ممارسة هوايتها. توقفت قطعة النقود فوق برجم أحد الأصابع ثم تهادت إلى حضن التاجر. أما أصابعه التي كانت خلف الطاولة فقد جمعها وشكل منها قبضة. وعندما أُخرجت اليد اليمنى من مخبئها، أخذت السبابة تلامس اللؤلؤة الضخمة، مدحرجة إياها على قطعة المخمل السوداء، بعدها

التقطت كل من السبابة والإبهام اللؤلؤة ورفعتاها عالياً، مقربتان إياها من عيني التاجر، ومن ثم قلبتاها في الهواء.

حبس كينو أنفاسه، وحبس الجيران أنفاسهم أيضاً، وأخذت الوتوتات تتحرك بين أفراد الحشد: «إنه يقوم بفحصها. لم يُذكر أي ثمن إلى الآن، لم يتوصلا إلى شيء بعد».

فجأة، أبرزت يد التاجر مهارتها، حينما وبخفة منقطعة النظير قذفت اللؤلؤة العظيمة وأعادتها إلى الصينية، ثم قامت السبابة بنقرها عدة نقرات وانسحبت، بعدها خيم حزن على وجه التاجر وابتسم ابتسامة ازدراء.

«آسف، يا صديقي»، قال التاجر ذلك، في الوقت الذي ارتفعت فيه كتفاه قليلاً، الأمر الذي له دلالة أن سوء الطالع لم يكن بسبب خطأ صدر عنه.

قال كينو:

«إنها لؤلؤة ذات قيمة كبيرة».

أعادت أصابع التاجر فحص اللؤلؤة من مختلف الجهات، بتدويرها وقلبها ورفعها. وقال إثر ذلك:

«هل سمعت بذهب الأبله. هذه اللؤلؤه كذهب الأبله. إنها أضخم من اللازم. فمن سيشتريها؟ ليس هناك أسواق لمثل هذه الأشياء. تُحفةٌ فحسب. أنا آسف. ظننت أنها شيء ذو قيمة، ولكنها ليست سوى تُحفة».

الآن، بدا على وجه كينو الحيرة والقلق. وصرخ قائلاً:

«إنها لؤلؤة العالم. لا أحد، إلى الآن، رأى مثل هذه اللؤلؤة».

أما التاجر فقد ردَّ قائلاً: « بل على العكس. إنها ضخمة، وغير مصقولة. وكدافع للفضول فإنها مناسبة، فقد يهم بعض المتاحف أن تستحوذ عليها وتضعها بين مجموعات الأصداف البحرية التي تملكها. يمكنني أن أعطيك، لِنَقُل، ألف بيزو* مُقابلها.

---

* البيزو: وحدة نقد في أمريكا اللاتينية. ـــ المترجم.

هجم الظلام والخطر إلى رأس كينو، الذي قال بغضب:

«إنها تستحق خمسين ألفاً. أنت تعلم ذلك. أنت تريد أن تغشني».

سمع التاجر دمدمة خفيفة تدور بين أفراد الحشد، إثر سماعهم السعر الذي دفعه، الأمر الذي جعله يشعر بموجة طفيفة من الخوف. وعلى الإثر قال بسرعة:

«لا تلمني، فأنا لست سوى موظف تخمين. اسأل الآخرين. توجه إلى مكاتبهم واعرض عليهم لؤلؤتك. أو دعهم يأتون إلى هنا، لترى أنه لا يوجد هناك أي تواطؤ بيني وبينهم. أيها الصبي!» وعندما طلّ خادمه من الباب الخلفي، أمره قائلاً:

«أيها الصبي! اذهب إلى ثلاثة من تجار اللؤلؤ. استدعهم إلى هنا. ولا تقل لهم عن السبب الذي حداني لذلك. وقل لهم فقط بأني سأكون مسروراً لرؤيتهم».

وراحت يده اليمنى إلى يمينه وسحبت قطعة معدنية أخرى من النقود من سترته المعلقة على الكرسي التي يجلس عليها، وأخذت قطعة النقود هذه تتدحرج، وهلمجرا، فوق براجم أصابعه.

أخذ جيران كينو يبسبسون بين بعضهم البعض. لقد كانوا يخشون حدوث شيء كهذا. كانت اللؤلؤة ضخمة، إلا أنها امتلكت لوناً غريباً. لقد شكّوا بها منذ البداية. وبعد كل هذا، لا يجوز أن يُرمى مبلغ قدره ألف بيزو. إنه يشكل ثروة معقولة لأي رجل، لم يكن ثرياً. ولنفترض أن كينو حصل على ألف بيزو، فهو حتى البارحة فقط، لم يكن يملك شروى نقير.

أما كينو فكانت تتصاعد عنده مشاعر من التوتر الحرج. بدأ يشعر بصرير القدر، وبحومان الذئاب، وتحليق النسور. كما شعر بالشيطان يتخثر حوله، وأن لا حول له ولا قوة لإنقاذ نفسه وحمايتها. أخذت موسيقى الشيطان تدق في أذنيه. وهنالك، من على

المخمل الأسود تصدر اللؤلؤة بريقها، لدرجة أن عيني التاجر لم تبرحانها.

باعد الحشد المتجمهر في الممر صفوفه لكي يسمح لتجار اللؤلؤ الثلاثة بالعبور. خيّم الصمت على الحشد الآن، لخشيته من فقدانه سماع أية كلمة، أو أن تفوته إيماءة أو أي تعبير. كان كينو صامتاً أيضاً، ويقظاً متحفزاً. شعر بشدٍ خفيف على ظهره، الأمر الذي جعله يدور ويتمعن في عيني جوانا، وحينما أزاح عينيه، تجددت قواه.

لم يتبادل التجار أية نظرات معبرة فيما بينهم، كما أنهم لم يلقوها إلى اللؤلؤة. قال الرجل، الذي كان واقفاً خلف الطاولة:

«كنت قد قمت بتقدير قيمة هذه اللؤلؤة. إلا أن صاحبها هنا، يظن أن تقديري ليس عادلاً. وها أنا ذا أطلب منكم القيام بفحص هذا، هذا الشيء وتقديم عروضكم. لاحظ». وجه الكلمة الأخيرة إلى كينو وأردف متابعاً:

«إنني لم أتطرق بالحديث عن عرضي».

التاجر الأول: بدا جافاً وقاسي الملامح، وبان عليه كأنه لأول مرة يرى فيها اللؤلؤة. التقطها. دورها بسرعة بين إبهامه وسبابته، ومن ثم رمى بها إلى الصينية بازدراء.

«لا تشاركوني في هذا النقاش». كان هذا ما صرح به بجفاف، وتابع قائلاً بجفاء:

«لن أقدم على تقديم أي عرض على الإطلاق. أنا لا أريدها. إنها ليست بلؤلؤة، إنها كالهولة* »، في وقت كانت فيه شفتاه الرقيقتان تتجعد.

التاجر الثاني: رجل صغير ذو صوت ناعم ساحر، التقط اللؤلؤة ورفعها عالياً وفحصها بعناية فائقة. أخرج عدسة مكبرة من جيب

---

* الهولة: حيوان أو نبات مشوه الخلقة. ــ المترجم.

سترته، وسلطها على اللؤلؤة وعاينها تحت التكبير. بعدها أخذ يضحك بنعومة. وقال أخيراً:

« إن أفضل اللآلئ ما صُنع من الصلصال والماء. أعرف هذه الأشياء. إنها ناعمة وطبشورية، وسوف تخسر صباغها وتموت بعد بضعة أشهر. أنظر!».

وقدم العدسة المكبرة إلى كينو، وأشار إليه بكيفية استخدامها. أما كينو الذي لم يسبق له أن رأى لؤلؤة مكبرة، أصيب بصدمة وهو يشاهد منظر سطحها الرهيب.

وأخيراً، جاء دور التاجر الثالث: التقط اللؤلؤة من يد كينو. وبعد نظرة خاطفة إليها قال:

«أحد زبائني يرغب في مثل هذه الأشياء. لذا فإنني أعرض خمسمائة بيزو ثمناً لها، فربما أستطيع أن أسوقها لزبوني هذا بمبلغ ستمائة».

وما كان من كينو إلا أن خطف اللؤلؤة من يده. لفها في خرقة جلد الغزال ودفع بها إلى عبه من تحت القميص.

قال الرجل، الذي كان واقفاً خلف الطاولة:

«لقد جننت. أعلم ذلك. ولكنني لن أتراجع عن عرضي الأول، فهو لا يزال قائماً. لا أزال أعرض مبلغ ألف بيزو. ماذا تعمل؟».

طرح عليه هذا السؤال بينما كان كينو يدفع اللؤلؤة في عبه بعيداً عن الرؤية.

صرخ كينو:

«لقد خُدعت. إن لؤلؤتي ليست للبيع هنا. سوف أذهب، ربما مباشرة إلى العاصمة».

الآن، أخذ التجار يلقون كل واحد منهم على الآخر نظرات عاجلة، وبدا عليهم أنهم أدركوا القسوة التي أداروا بها اللعبة، كما أيقنوا أنهم سينالون عقاباً شديداً على هذا الفشل، الأمر الذي جعل الرجل، الذي كان واقفاً خلف الطاولة يقول:

«أستطيع أن أرفع السعر إلى خمسة عشر مائة».

لكن كينو كان قد شق طريقه عبر الحشد، وقد وصلت كينو همهمة هذا الحديث مشوشة، لأن ثورة الغضب كانت قد أخذت تدق في أذنيه، إلا أنه تابع اندفاعه وابتعد. وسارت جوانا ترفل مهرولة خلفه.

عندما حلّ المساء، جلس الجيران في المنازل الدغلية يتناولون كعكات الذرة والفاصولياء، ويتبادلون الحديث حول حدث الصباح العظيم. لم يستوعبوا الأمر، فقد بدت لهم لؤلؤة فاتنة، وهم لم يشاهدوا مثل هذه اللؤلؤة من قبل. والتجار، بكل تأكيد، يعلمون أكثر منهم في تقدير قيمة اللآلئ و"تصنيفها أيضاً"، وقالوا:

«هؤلاء التجار، لم يناقشوا هذه الأمور. فكل واحد من هؤلاء التجار الثلاثة يعلم بأن هذه اللؤلؤة عديمة القيمة. لكن لنفترض أنهم قاموا بترتيب ذلك، بصورة مسبقة. وإذا كان الأمر كذلك، عندها سنكون نحن جميعاً قد خدعنا طيلة حياتنا».

وجادل بعضهم أنه، ربما كان من الأفضل لو أن كينو كان قد قبل بالألف وخمسمائة بيزو. إنه مبلغ ضخم من النقود، أكبر من أي مبلغ كان قد رآه طيلة حياته. وقد يكون كينو قد تصرف تصرُّف الأحمق المجنون. لنفترض أنه، حقيقة، ذهب إلى العاصمة ولم يجد مشترياً للؤلؤته. عندها لن تُغفر له جريمته هذه طيلة الحياة.

والآن، قال آخرون، والخوف بدا على وجوههم: الآن، وبما أنه قد تحداهم، فسوف لن يتعامل معه هؤلاء التجار ثانية. فقد يكون كينو قد قام بقطع رأسه ودمر نفسه بنفسه.

وقال آخرون: إن كينو رجل شجاع وقوي وجبار، إنه على صواب. وقد نربح جميعاً من جراء شجاعته هذه. إن هذا مضرب فخر له. في المنزل تكور كينو على حصيرة النوم مكتئباً. وقد كان قد طمر اللؤلؤة تحت حجر الموقد، ومن ثم بحلق في عشب الديس* المحبوك

---

* الديس: عشب مائي أمريكي. ـــ المترجم.

لحصيرة النوم، قبل أن يتراقص تصميمٌ في ذهنه. لقد خسر عالماً ولم يربح آخر. وكان كينو خائفاً. هو، الذي لم يبتعد عن منزله في يومٍ من الأيام، كان يخشى الغرباء والأمكنة الغريبة. لقد كان مرعوباً من وحش الغربة، تلك التي يطلقون عليها اسم العاصمة. إنها تستلقي فوق الماء وبين الجبال، على بعدِ ألف ميل، وكل ميل أجنبي كريه كان مثيراً للرعب. لكن كينو كان قد خسر عالمه القديم، وعليه أن يتعمشق عالماً آخراً جديداً. وفيما يتعلق بحلمه عن المستقبل، فقد كان مؤمناً أنه حقيقة، لا يمكن تدميرها أبداً. لذا ما كان منه إلا أن يقول:

«سوف أذهب».

وهذا القول بحد ذاته يساهم في صناعة أشياء حقيقية أيضاً. إن مجرى عملية التفكير في اتخاذ القرار، والتصريح عنه، هما بحد ذاتهما يشكلان نصف الطريق هنا.

راقبته جوانا وهو يطمر اللؤلؤة، وراقبته في الوقت الذي كانت فيه تنظف كوواتيتو وترضعه، وأثناء قيامها بإعداد كعكات الذرة للعشاء.

حضر جون توماس وجلس على الأرض، بجانب كينو، وبقي صامتاً لوقت طويل، حتى سأله كينو قائلاً:

«ماذا عليّ أن أفعل غير ذلك؟ إنهم غشاشون».

أومأ جون توماس برأسه بوقار. كان هو الأكبر، لذا كان يتفحصه كينو باحترام، منتظراً منه نصيحة حكيم. أجاب جون توماس قائلاً:

«إنه من الصعوبة بمكان معرفة ذلك. فنحن نعلم أنه يجري الاحتيال علينا من الولادة، بصورة لا تطاق، حتى نوضع في التوابيت. إلا أننا لا نزال على قيد الحياة. لقد تحديت أنت اليوم، ليس تجار اللؤلؤ فحسب، بل البنية بأجمعها، الطريق الكلي للحياة، وأنا في أشد الخوف عليك».

قال كينو:

«ما الذي أملكه لأخاف؟ أ من الموت جوعاً؟».

لكن جون توماس، هز رأسه ببطء وقال:

«لذا يجدر بنا جميعاً أن نخاف. لنفترض أنك على حق، لنفترض أن لؤلؤتك ذات قيمة عظيمة. فهل اللعبة قد انتهت؟ هل تفكر بالشوط القادم؟».

أجابه كينو:

«ما الذي تعنيه؟».

قال جون توماس:

«لا أدري. إلا أنني أخشى عليك. إنها أرض جديدة، تلك التي تسير عليها، وأنت لا تعرف الطريق».

قال كينو:

«سوف أذهب. سوف أذهب حالاً».

قال جون توماس:

«أجل هذا ما يجب أن تقوم به، لكنني سأتعجب إذا وجدت شيئاً مختلفاً في العاصمة. هنا، يؤازرك أصدقاء بالإضافة إليّ ـ شقيقك. وهناك، لن يكون أحد معك».

قال كينو صارخاً:

«ماذا علي أن أعمل. هنا نتعرض إلى انتهاك، جذوره عميقة. يجب أن يحصل ابني على فرصة، وهذا يحولون دونه. يجب أن يدافع الأصدقاء عني».

قال جون توماس:

«فقط إلى تلك الدرجة التي فيها لا يعرضون أنفسهم فيها للخطر أو حتى إلى إزعاج من جراء ذلك» ثم نهض وقال:

«اذهب، ليرافقك الله».

ردد كينو:

«اذهب ليرافقك الله».

ولم يرفع بصره ، لأن هذه الكلمات كانت تثير قشعريرة غريبة في جسده.

مكث كينو يفكر طويلاً وهو متكور على حصيرة النوم. بعد أن غادره جون توماس، سيطرت عليه بلادة، ترافقت بشعور من الخيبة. فكل الطرق كانت تبدو مغلقة في وجهه. وفي رأسه أخذت تحلق موسيقى العدو السوداء فحسب. كانت أحاسيسه تتقد، لكن فكره تقهقر إلى الخلف، إلى المشاركة العميقة مع كل الأشياء، وإلى الهبة التي حصل عليها من عشيرته. لقد سمع كل همسة دارت في هذا الليل الجامح، حتى شكاوي الطيور النائمة في أعشاشها، وأنات القطط وهي تمارس الجنس، وهيجان وانتثار الأمواج الصغيرة على الشاطئ، والهسهسة القادمة من البعيد. وتحسس الرائحة الحادة لعشب البحر المهجور، القادمة من تخوم جزر الماء على الشاطئ. أما شعلة النار الصغيرة، التي تلألأت فجأة من الموقد، فكانت قد رسمت وهجاً على حصيرة النوم، تراقص أمام ناظريه.

راقبته جوانا بقلق شديد، وبما أنها كانت تعرفه جيداً، فقد أدركت أن وجوب تقديم المساعدة له بصورة أفضل، يقضي بمحافظتها على الصمت والبقاء بقربه. وعندما ظنت أنه يقوم الآن بالاستماع إلى أغنية الشيطان، حاربتها بأن أخذت تغني بنعومة لحن أغنية العائلة، وذلك من أجل سلامة وسعادة الأسرة و سواد الحميمية فيها. حملت كوواتيتو بين ذراعيها وتابعت غناء هذه الأغنية له، لكي تُبقي الشر بعيداً، وكان صوتها شجاعاً أمام هذا التهديد القادم من الموسيقى السوداء.

لم يتحرك كينو ولم يستفسر عن طعام العشاء. وكانت جوانا تعلم أنه سيطلب الطعام، حينما يشعر أنه بحاجة إليه. كانت عينا كينو مضطربتين، أما أحاسيسه فقد كان يسيطر عليها القلق واليقظة من الشيطان القابع خارج منزله الدغلي، وكان يظن أن أشياء في الظلام هناك، تنتظره وهو شاقاً طريقه عبر الليل. كل هذا جميعه

شكل ليلاً مظلماً كئيباً مفزعاً، أفزعه وهدده وتحداه. ذهبت يده اليمنى تحت قميصه وتحسست المدية. توسعت حدقتا عينيه؛ ونهض واقفاً وأخذ يسير باتجاه عتبة الدار.

رغبت جوانا بإيقافه. أومأت له بيدها كي يقف، وانفتح فمها مرعوباً. لدقائق طويلة طل كينو عبر الظلام، ومن ثم اندفع خارجاً. سمعت جوانا صخباً خافتاً، وأصوات شجار وضربة وعصف هواء. تجمدت من الرعب للحظة، ومن ثم غارت شفتاها في فمها، كما قطة فوجئت بكلب يريد افتراسها. وضعت كوواتيتو على الأرض. قبضت على حجر من على الموقد واندفعت إلى الخارج، إلا أن كل شيء كان قد انتهى آنذاك. وجدت كينو مستلقياً على الأرض ينازع النهوض، ولم يكن هنالك أحد قريباً منه. لم يكن سوى الظلام وصخب بعيد وأصوات اندفاعات لأمواج البحر وهسيس نائي. لكن الشر كان في كل ذلك، كانت روحه تحوم فوق السياج الدغلي، وأحياناً يتبختر في ظلال المنزل وأخرى يرفرف في الهواء.

رمت جوانا الحجر، وطوقت كينو بذراعيها وساعدته على النهوض وقادته إلى المنزل. كان الدم ينز من فروة رأسه وهنالك جرح طويل وعميق في وجنته، من الأذن حتى الذقن، بدا أنه شق طولي عميق، كان ينزف. وكان كينو نصف واع، يأرجح رأسه من طرف إلى آخر، قميصه ممزقاً وملابسه منتزعةً نصف انتزاع. أجلسته جوانا على حصيرة النوم، وأخذت تمسح بقع الدماء المتجمدة من على وجهه بواسطة تنورتها. وجلبت له شراب البَلكة في قدح صغير ليشربه، في وقت كان فيه يهز رأسه ليمسح الظلمات.

سألته جوانا:

«مَنْ؟».

أجابها:

«لا أعلم. لم أره».

والآن، جلبت جوانا قطعة صلصال مجبولة بالماء، وأخذت تغسل الجرح الذي على وجهه، في الوقت الذي كان فيه مُبحلقاً في الأمام.

صرخت جوانا:

«كينو، يا زوجي!» وبقيت عيناه تبحلقان بها.

«كينو، هل تسمعني؟».

قال ببلادة:

« أسمعك».

قالت:

«يا كينو! هذه اللؤلؤة عبارة عن شيطان. دعنا ندمره، قبل أن يدمرنا. دعنا نحطمها بين حجرين. دعنا نرميها في البحر، إلى حيث تنتمي. يا كينو! إنها الشر. إنها الشر!».

وبعد أن أنهت حديثها، عاد النور ثانية إلى عيني كينو، حيث أخذتا تشعان، كما قست عضلاته وتصلبت إرادته.

قال لها:

«كلا. سوف أقاتل هذا الشيء. سوف أنتصر عليه. سوف نحصل على فرصتنا».

وضرب حصيرة النوم بقبضته وقال:

«لا أحد يستطيع انتزاع قدرنا الجيد منا».

والآن أخذت عيناه تلطفان، ورفع يده ووضعها على كتف جوانا بحنان، وقال:

«امنحيني ثقتك. أنا رجل».

وبدا على وجهه التصميم. وتابع قائلاً:

«في الصباح، سوف نأخذ قاربنا وسنركب البحر ونصعد الجبال إلى العاصمة، أنت وأنا. سوف لن نكون مخدوعين. إنني رجل».

ثم قال بعنف:

«صَهي. إنني رجل. صَهي».

أما جوانا فكانت صامتة، لقد جاء صوته آمراً. تابع كينو قائلاً:

«دعينا نأخذ قسطاً من النوم. سوف نستيقظ عند أول ضوء. هل أنت لست جزعة من الذهاب معي؟».

«كلا يا زوجي».

آنذاك، أخذت عيناه تسلطان الدفء والحنان عليها، وأخذت يداه تلامس وجنتها. وقال أخيراً:

«دعينا نأخذ قسطاً من النوم».

5

استيقظ القمر، الذي قدم متأخراً، قبل صياح الديك الأول. فتح كينو عينيه في الظلام، لما شعر بحركة تدب قريباً منه، غير أنه لم يتحرك، لكنه منح، فقط، لعينيه جولة بحث في الظلام، ومن خلال ضوء القمر الباهت القادم عبر شقوق جدران منزله الدغلي، رأى كينو جوانا تنهض بصمت من جانبه. شاهد حركتها باتجاه الموقد. كانت تتصرف بحذر وحيطة، إلى تلك الدرجة التي لم يسمع فيها إلا حركة واحدة، صدرت عن تحريك حجر الموقد. وبعدها، وكالخيال قفزت باتجاه عتبة المنزل. سكنت وألقت نظرة خاطفة على كوواتيتو المستلقي في الصندوق المعلق. وبعد ثانية واحدة أصبحت أمام عتبة الباب واختفت.

ثارت ثائرة كينو. جمع قدميه ونهض ولحق بها بهدوء، كما فعلت، في الوقت الذي كان فيه يسمع وقع خطواتها السريعة متجهة إلى الشاطئ. وبالهدوء ذاته حاول اللحاق بها، لكن رأسه أصبح أحمراً من الغضب. في هذه الأثناء انتفضت جوانا وتجاوزت الخط الدغلي وقفزت إلى صخرة صغيرة جاثمة على حافة البحر، حينها سمعت وقع خطوات كينه وهو قادم باتجاهها، فأخذت تجري. لم يحالفها الوقت للقيام بأي تصرف، حيث كان زوجها أسرع مما تصورت، وقد قفز إليها وخطف اللؤلؤة من قبضتها، التي كانت تلوح بها في الهواء لترميها، ولطمها على وجهها بقبضته، وركلها على جنبها، فارتمت في البحر بين الصخور. ومن خلال ضوء القمر استطاع أن يرى موجات صغيرة تتكسر على جسمها، ويشهد على تنورتها الطافية على الماء، التي عرت ساقيها، اللذان كانا يصدران أشعة من تحت الماء.

عاود كينو النظر إليها إلى الأسفل مكشراً عن أسنانه، وفَحَّ عليها فحيح الأفعى، أما جوانا فكانت ترمقه بعينين عريضتين غير وجلتين، كما يفعل الخاروف أمام الجزار، حيث أيقنت الآن أنه يهم بارتكاب جريمة، واعتبرت أن ذلك طبيعياً، وهي لن تقاوم أو حتى تحتج. وقررت أنه منذ هذه اللحظة يجب عليها أن تستسلم لواقع الأمر وتلتزم الصمت وتقدم آيات الطاعة، وأن لا تبدي أية بوادر من الاحتجاج أو الشكوى. في هذه الأثناء، غادرته ثورة الغضب وحل محلها غثيان شديد. استدار عنها، وأخذ يخطو باتجاه المنزل على الخط الدغلي. وهنا تبلدت أحاسيسه مما سيطر عليه من انفعالات.

سمع صوت اندفاع. استل مديته وسددها باتجاه شبح أسود، وشعر كأنها استقرت في الهدف. دُفع ووقع على ركبتيه، ودُفع ثانية وسقط على الأرض. أصابع جشعة اخترقت ملابسه، وأصابع شديدة الاهتياج باشرت تفتيشه، أما اللؤلؤة فكانت قد سقطت من يده واستقرت أخيراً خلف حجر صغير على الأرض، وأخذت تتلألأ تحت ضوء القمر الرقيق.

حررت جوانا جسمها من الصخرات التي امتدت على حافة الماء. كان وجهها وخاصرتها تؤلمانها ألماً مبرحاً. قرفصت على ركبتيها لبرهة، في وقت كانت فيه تنورتها المبللة ملتصقة على جسمها. لم يبد على وجهها أية دلائل غضب على كينو. لقد قال: «أنا رجل». وهذا أمرٌ يعني أشياء معينة بالنسبة لجوانا. و يعني أيضاً أنه نصف مجنون ونصف إله. وكذلك يعني أن كينو سوف يقوم بتوجيه قوته وجبروته ضد الجبل والبحر. وجوانا بعاطفتها الأنثوية، علمت بأن الجبل سيبقى واقفاً، بينما سيحطم الرجل نفسه، وأن البحر سيبقى متدفقاً، بينما سيغرق الرجل فيه، علاوة على أن هذا الشيء هو الذي جعله رجلاً، نصف إنسان ونصف إله، وجوانا تحتاج إلى رجل، وهي غير قادرة على الحياة بدون رجل. ومع أنها تحتار في هذه الاختلافات بين الرجل والمرأة، لكنها كانت تعيها وترضى بها

وتحتاجها. وهي، طبعاً، سوف تتبع كينو، ولا يمكن أن يكون هنالك سؤال حول ذلك. في بعض الأحيان، تكون صفات المرأة، من رُشدٍ وحرص وإحساس بحب البقاء، تتقاطع مع رجولة كينو، وتنقذهما سوية. وأخيراً، وقفت على قدميها المتألمتين، ومرجحت أصابع قدميها في الأمواج الصغيرة، وغسلت وجهها المكدوم بالماء المالح القارص، وقفزت تاركة الشاطئ باتجاه كينو.

تحركت سحابة من أسماك الرَنكة في السماء قادمة من الجنوب. والقمر النائص غاص في طيات السحب وأخذ يعاركها، لذا فإن جوانا مشت في ظلام مطبق لبرهة ولبرهة أخرى في ضياء. وكان ظهرها منحنياً من شدة الآلام ورأسها منخفض العنق. سارت عبر خط أجمات الدغل، في وقت كان القمر غاطساً في السحب، بينما أخذ يظهر إليها من بعيد بريق لؤلؤة عظيمة، اضطجعت على الطريق إلى جوار صخرة. ركعت على ركبتيها والتقطت اللؤلؤة، بينما كان القمر في ظلمات السحب، وانتابتها فكرة العودة إلى البحر وإنهاء مهمتها، التي باءت بالفشل في المرة الأولى، في الوقت الذي شاهدت جسدين ممددين في مواجهتها في الممر. وثبت إلى الأمام، فلاحظت أن كينو كان أحدهما، أما الآخر فهو من الغرباء، كان سائل قاتم يشع ويسيل من حلقه.

تحرك كينو ببطء شديد. ساقاه وذراعاه بالكاد قدرت على حركة زاحفة، كذراعي وساقي بقة مدهوسة، وكانت هنالك همهمة ثقيلة تصدر عن فيه. والآن أيقنت جوانا، بحدسها، أن الحياة القديمة رحلت إلى الأبد. رجل ميت على قارعة الطريق ومدية كينو ذات النصل القاتم استلقت إلى جواره، كانا لا بد لهما أن توصلاها إلى هذه القناعة.

على طول الوقت الخالي، كانت جوانا تحاول المحافظة على بعض أشياء السلام القديم، الذي يعود إلى زمن ما قبل اللؤلؤة. والآن ولّى كل شيء، ولا مجال لاستعادة أي شيء. لذلك وبيقينية، قررت جوانا هجر الماضي حالاً. لم يكن هنالك شيء يمكن عمله، سوى إنقاذ الأنفس.

رحل عنها الألم الآن، ورافقه الوهن. وبسرعة سحبت الرجل القتيل من قارعة الطريق إلى ملجأ في الأجمة الدغلية. توجهت إلى كينو، ومسحت ورطبت وجهه بتنورتها المبللة. أخذ الوعي يعود إليه، وقال:

«لقد أخذوا اللؤلؤة. لقد فقدتها. أصبحت خارج حوزتنا. لقد هجرتنا اللؤلؤة».

هدأت جوانا من رعبه، كما لو أنها تهدهد طفلاً مريضاً. وقالت:

«هذا هراء، هذه هي لؤلؤتك. عثرت عليها في الممر. هل تسمعني الآن؟ هذه هي لؤلؤتك. هل تستوعب ذلك؟ لقد قتلت رجلاً. يجب علينا الرحيل. سوف يقدمون من أجلنا، هل تفهم؟ علينا الرحيل، قبل أول خيط ضوء».

قال كينو بتلعثم:

«لقد هوجمت. كافحت لإنقاذ حياتي».

سألته جوانا قائلة:

«هل تتذكر يوم البارحة؟ أ تظن بأن هذا يُهم في شيء؟ أتتذكر رجال المدينة؟ هل تظن أن تعليلاتك ستساعد في شيء؟».

تنفس كينو الصعداء، وحاول التخلص من ضعفه. وقال:

«كلا. أنت على صواب».

وتحامل على نفسه وتقوى وعاد هو ذلك الرجل ثانية.

قال كينو آمراً:

«توجهي إلى المنزل وأحضري كوواتيتو، واجلبي كل الذرة التي نملك. سوف أسحب القارب ونهاجر».

تناول كينو المدية، وغادر زوجته. هرول باتجاه الشاطئ متعثراً حتى وصل إلى قاربه. وعندما كشفه بصيص من الضياء، رأى أن هنالك ثقباً كبيراً في قاعه. عندها، اجتاحته ثورة من الغضب، أضافت إلى قوته قوة. الآن، أطبق الظلام على أسرته، وموسيقى

الشيطان استولت على الليل، كما عجزت المجاذيف عن شق عباب أمواج البحر.

ها هو قارب جده، الذي كان في كل عام يرقعه ويعيد الحياة إليه، تبين أنه مثقوب، لا يقوى على الحركة. أصبح هذا الأمر العقبة الكأداء والشيطان في وجه التفكير. وأن مقتل الرجل بدا ليس عملاً شيطانياً، بقدر شيطانية مقتل القارب. فالقارب ليس له أبناء، ولا يستطيع حماية نفسه، كما أن جراحه لا تندمل. تسرب الحزن إلى ثورة كينو، وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي ينشّد فيها إلى اليأس. لقد أصبح كالحيوان، مستعداً للاستخدامين: الركوب والهجوم، وسوف يحيا لحماية نفسه وأسرته فحسب. لم يشعر بالألم في رأسه. استدار تاركاً الشاطئ وراءه، وتوجه إلى منزله الدغلي، عبر خط أجمات الدغل، ولم يخطر على باله أن يستولي على أحد قوارب جيرانه. هذا التفكير الذي لم يراوده أبداً، فهذا بعيد عن قناعاته، كبعد قناعته عن تحطيم أي قارب.

أخذت الديوك تصيح، وبدا حلول الفجر ليس بعيداً. تراءت بعض أدخنة النيران الأولى تتصاعد عبر شقوق جدران المنازل الدغلية، وعبقت في الأنوف أولى روائح كعكات الذرة، قادمة عبر الهواء. وكانت عصافير الفجر تفرفر في الأجمات الدغلية. فقد القمر الواهن ضياءه، فيما أخذت السحب تتكاثف وتوجهت جنوبياً. ضرب ريحٌ طريُ مصب النهر والأعصاب، أما قلقه المشحون برائحة العاصفة، فكان كينو يقتات به، في وقت بدت فيه تغيرات على درجة من الأهمية في الفضاء.

وفي أثناء جريان كينو إلى منزله، شعر بموجة من الابتهاج المصطخب. فالآن لم يكن حائراً، حيث أصبح أمامه عمل واحد، يتوجب القيام به، الأمر الذي جعل يده تأخذ بتلمس اللؤلؤة في قميصه، أولاً، ومن ثم المدية المعلقة تحت القميص.

شاهد أمامه شيئاً يتوهج، بعدها مباشرة اخترقت السماء شعلة نار طويلة الظلال مع أصوات فرقعات، وأخذت مساطر كثيرة من الضياء تنير الممر. زاد كينو من سرعة جريه: لقد شب الحريق في منزله الدغلي. هذا ما أيقنه، في الوقت الذي كان فيه متيقناً من أن النيران، بعد نشوبها، تستطيع أكل مثل هكذا منازل خلال بضع دقائق. وفي هذه الأثناء، رأى شبحاً يتمايل أمامه، لم يكن سوى جوانا وكوواتيتو بين ذراعيها، حاملة الدثار، الذي يضعه كينو على كتفيه.

كان الطفل يبكي مرعوباً، وعينا جوانا مفتوحتان على مصراعيهما من الهلع. أما كينو، فعلى الرغم من أنه كان يرى أن منزله آيلاً إلى اللاشيء، لم يطرح أي سؤال على جوانا، لأنه كان يُدرك ما حدث. إلا أن جوانا قالت:

«لقد اقتُلِع، وحفرت أرضيته. حتى إن صندوق الطفل قد عُبث به، وبينما كنت فيه أضرموا النار من الخارج».

أنار الضوء الساطع المنبعث من المنزل المحترق وجه كينو بقوة، الذي سأل قائلاً:

«من؟».

قالت جوانا: «لا أدري. أشباح».

أخذ الجيران يندفعون من منازلهم الآن، و شاهدوا شظايا النيران تندفع إليهم، فباشروا بإطفائها خوفاً على منازلهم. وفجأة سيطر الخوف على كينو. لقد جعله الضياء الباهر جزعاً. تذكر الرجل وهو مستلق، مفارقاً الحياة، في أجمة الدغل بجانب الطريق وسحب جوانا من ذراعها متوجهاً بها إلى ظلال أحد المنازل، بعيداً عن النور الساطع، لأنه كان يشكل خطراً على كوواتيتو. تسمّر برهة من الزمن، ثم أخذ يقفز بين الظلال، حتى وصل إلى منزل شقيقه جون توماس، واخترق عتبته، ساحباً جوانا خلفه. من الخارج، كان يسمع أصوات عويل الأطفال وصرخات الجيران، فقد ظن أصدقاؤه أنه لا يزال في المنزل، الذي شبت فيه النيران.

كان منزل جون توماس مماثلاً لمنزل كينو، فتقريباً كانت جميع المنازل الدغلية متشابهة، ويرشح إليها النور والهواء ، لذا فقد كان كل من جوانا وكينو وهما جالسان في زاوية منزل شقيق كينو، يشاهدان ألسنة اللهب من خلال الجدران. لقد شاهدا ألسنةً تتطاول وتتمايل، والسقف يتهاوى وكتلاً من الأشياء الملتهبة تموت، ساقطة إلى الأسفل، كما تتهاوى الأغصان تحت سعير النيران. سمعا صرخات أصدقائهم التحذيرية، وصراخ أبولينا، زوجة جون توماس، المدوي. لقد كانت أقرب النساء إليهما، وهي الآن تندب العائلة.

بعد أن تيقنت أبولينا أنها تضع الشال القديم على رأسها، اندفعت إلى منزلها، باحثة عن شالها الجديد الجميل. وعندما وصلت إلى صندوق معلق على الجدار، صدر صوت سريع من كينو:

«يا أبولينا! لا تصرخي خارجاً. إننا سالمون».

استفسرت أبولينا:

«كيف وصلتم إلى هنا؟».

قال كينو:

«لا تطرحي أية أسئلة. بل اذهبي حالاً واستدعي جون توماس إلى هنا، ولا تعلمي أحداً آخراً. إنه أمر شديد الأهمية بالنسبة لنا، يا أبولينا!».

اندهشت أبولينا في الوقت الذي كانت فيه يداها عاجزتين ممدودتين إلى الأمام من جسدها، وبعد برهة من الزمان قالت:

«أجل يا سِلفي».

خلال دقائق عدة، وصل جون توماس، قادماً معها. أنار قنديلاً ودنا منهما، حيث كانا متكورين في ركن المنزل، وقال:

«يا أبولينا! راقبي باب المنزل ولا تسمحي لأحد بالدخول!».

كان جون توماس الشقيق الأكبر، الذي يُفترض أن يمثل السلطة في العائلة.

قال جون توماس:

«والآن يا شقيقي؟».

قال كينو: «لقد هوجمت في الظلام. وفي مجرى النزاع قتلت رجلاً».

سأله جون توماس قائلاً بسرعة:

«مَنْ؟».

قال كينو:

«لا أعرف. كل شيء ظلام .. وله شكل الظلام».

قال جون توماس:

«إنها اللؤلؤة. هنالك شيطان يقبع في اللؤلؤة. كان عليك بيعها وطرد الشيطان. ربما يكون بإمكانك بيعها وشراء السلام لنفسك».

قال كينو:

«آه، يا أخي! لقد وُجِّهت إليّ إهانة، أعمق من حياتي. إن قاربي محطم على الشاطئ، ومنزلي يحترق، وفي أجمة الدغل هنالك رجل يستلقي ميتاً. لقد سدت في وجهي المسالك. يتوجب عليك أن تخفينا، يا أخي!».

تمعن كينو في جون توماس عن كثب، فرأى أن هنالك قلق عظيم يخيم على عيني شقيقه، كما لو أنه كان يتوقع رفض الطلب. وقال بسرعة:

«ليس لأمد طويل. فقط ليمر هذا النهار ويأتي ظلام جديد. بعدها سوف نرحل».

قال جون توماس:

«سوف أخبأكم».

قال كينو:

«لست ممن يرغب في استقدام الشر إليكم. أعلم أنني أصبحت كالجذام. سوف نرحل هذا المساء، وعندها ستصبح في مأمن».

«سوف أحميكم». هذا ما قاله جون توماس، ونادى قائلاً:

«يا أبولينا! أغلقي الباب. وإياك أن تهمسي لأحد بأن كينو عندنا».

جلسا طيلة النهار في ظلام المنزل صامتين، وكانا يسمعان الجيران يتحدثون عنهم. ومن خلال شقوق جدران المنزل، راقبوا الجيران وهم يزيلون الرماد، بحثاً عن العظام. وهما متكوران في منزل جون توماس، أدركا مما سمعوه من الجيران بأن خبر تحطم قارب كينو، قد وصل إليهم وأقلقهم قلقاً شديداً. انطلق جون توماس إلى الخارج لكي يحاول إبعاد الظنون والشكوك التي أخذت تحوم في خلود الجيران، فباشر باختلاق أفكار وتخمينات شتى عن الذي حدث لكينو وزوجته جوانا وابنه كوواتيتو: قال لأحدهم: «أظن أنهم رحلوا إلى الجنوب على طول الشريط الساحلي، للتخلص من الشيطان الذي حل بهم». وقال لآخر: «لن يهجر كينو البحر أبداً. فربما عثر على قارب آخر». و «مرضت أبولينا حزناً عليهم».

في ذلك اليوم، أخذت رياح قوية تضرب على الخليج، كنست أعشاب البحر وطحالبه، التي خطت الشريط الساحلي، واندفعت هذه الرياح إلى المنازل الدغلية، بعد عدم تركها أي قارب يستقر على سطح الماء. عندها، أخبر جون توماس الجيران: «لقد انتهى كينو. فإذا كان رحيله عبر هذا البحر، فسوف يكون الآن غارقاً فيه». وبعد كل جولة كان يقوم بها بين الجيران، كان جون توماس يكر عائداً، حاملاً بعض الأشياء. جلب كيساً صغيراً يحتوي على فاصولياء حمراء وعلى يقطينة مجففة مملوءة بالرز. جلب كأساً من الفلفل الجاف ومقداراً كبيراً من الملح ومدية قابلة للاستخدام، طولها ثمانية عشر إنشاً، ثقيلة كفأس صغير، تصلح كأداةٍ وسلاح. وعندما رأى كينو هذه المدية، شعّت عيناه، فحص النصل وإبهام يده تلمس حَدَه.

عصفت الرياح سطح الخليج، وجعلت لون مياهه بيضاء، وألحقت بمجاذيف القوارب الدمار، رافعة الغبار الرملي الناعم من الشاطئ، مشكلة منه غيمة طارت فوق البحر. وأخذت الرياح تقود

الغيوم بعيداً، تاركة خلفها سماءً صافية، كانسة رمل اليابسة، محولة إياه إلى كثبان تشبه الثلج.

بعد ذلك، وعندما اقترب المساء، أدار جون توماس حديثاً طويلاً مع أخيه، استهله قائلاً:

«إلى أين سترحل؟».

قال كينو:

«إلى الشمال. سمعت أن هنالك مدناً».

قال جون توماس:

«تجنب الشريط الساحلي! سوف يشكلون جماعات، سيقومون بكنس هذا الشريط بحثاً عنك. سوف يفتش رجال المدينة عنك. هل ما زلت تحتفظ باللؤلؤة؟».

قال كينو:

«إنها معي. وسوف أحتفظ بها.كان يُمكن أن أهبها، إلا أنها أصبحت الآن بُليتي وحياتي، وسوف أحافظ عليها».

كانت عيناه قاسيتين ومريرتين ولاذعتين.

أخذ كوواتيتو يئن، فاحتضنته جوانا وأخذت تقرأ له شيئاً، لم يكن مفهوماً، في محاولة منها لإعادة السكينة إليه.

«جاءت الرياح في أوانها. لن تبقي آثاراً». هذا ما صرح به جون توماس.

غادروا عندما دَمُس الظلام، قبل بزوغ القمر. وقفت العائلة في منزل جون توماس، استعداداً للانطلاق: حملت جوانا كوواتيتو على ظهرها، معلقاً ومغطى بشالها. كان كوواتيتو يغط في نوم عميق، ووجنتاه باتجاه كتفيها. غطى الشال الطفل، وإحدى نهاياته مرت عبر أنف جوانا، لحمايته من هواء الليل الشرير. عانق جون توماس شقيقه مرتين وقبله على وجنتيه، وقال له:

«ليرافقك الرب». ما أشبه هذا الوداع بوداع الموت.

«عليك أن لا تتخلى عن اللؤلؤة!». هذا آخر ما خاطبه به شقيقه، جون توماس.

قال كينو، مجيباً على ذلك:

«أصبحت هذه اللؤلؤة كالروح بالنسبة لي. إذا تخليت عنها، فسوف أفقد روحي. ليحميك الرب أنت أيضاً».

6

عصفت الرياح بقوة وضراوة، وحملت معها قطع من الأعواد ورمال وحصى صغيرة. حزم كل من جوانا وكينو ملابسهما حول جسميهما جيداً ولثّما أنفيهما، واندفعا في هذا العالم. كانت الرياح قد انتهت من تنظيف السماء، وبردت النجوم في سماء سوداء. سار الاثنان بحذر، متجنبان مركز البلدة، لكي لا يُشاهدان من قبل بعض الناس، ممن ينامون على جوانب الشوارع. وكانت البلدة تغلق أبوابها في وجه الليل، بحيث أنه يمكن ملاحظة أي شخص يتمختر في الظلام. اختار كينو الطريق الدائري للمدينة، وانحرف نحو الشمال، شمالاً مسيراً بالنجوم، حتى عثر على الدرب الرملي المخدد، الذي يتجه عبر أراضي حراجية إلى لوريتو، حيث محطة مقام السيدة العذراء، مُجترعة المعجزات.

كان كينو يشعر بعصف الرمال في مواجهة كواحله، الأمر الذي خلق فيه السرور، لعلمه أنه لن تكون هنالك آثار لسيرهما. أما الضياء الخافت القادم من النجوم، فكان يرسم له درباً ضيقاً، عبر الحراج. كما استطاع كينو سماع وقع خطوات جوانا التي كانت تسير خلفه. مشى كينو بسرعة وبحذر، وأخذت جوانا ترفل خلفه غير متخلفة عنه.

شيء قديم يثير عنده القلق. من خلال الخوف من الظلام والشياطين التي تحوم في الليل، انتابته دفعة من الابتهاج، وكان شيء حيواني يتحرك في جوفه، الأمر الذي جعله محتاراً وقلقاً ويستشعر بخطورة ما. شيء قديم نهض من ماضٍ يعود إلى آبائه وأجداده، استيقظ فيه. الريح تعصف في مؤخرته، والنجوم تقوده. أصدرت الرياح هسيساً وقرقعة في الأجمة، بينما الأسرة تسير برتابة، ساعة إثر

أخرى. لم يمرا بأحد ولم يُشاهدا أحداً. أخيراً، ومن جهة اليمين، نهض القمر، الذي كان داخلاً في المحاق، وعندما استقام، سقطت الرياح قتيلة، وأصبحت الأرض بلا حراك.

الآن، أصبح بإمكانهما رؤية درب صغير في المقدمة منهما، تراءت عليه آثار عجلات، انجرفت عليها رمال. بعد زوال الرياح، أصبح بالإمكان أن تُرسم آثار مسيرهما على هذا الدرب، إلا أنه ولحسن الحظ، كانا قد أصبحا على مسافة بعيدة من البلدة، الأمر الذي يجعل من الصعوبة ملاحقتهما انطلاقاً من ذلك. سار كينو بحذر عبر خط آثار دواليب، ولحقته جوانا على الأثر. عربة كبيرة تسافر إلى البلدة صباحاً، ستكنس كل أثر قد يتركانه على هذا الدرب.

سارا طوال الليل، دون تغيير خط السير. فجأة، استيقظ كوواتيتو، فسحبته جوانا ليصبح في حضنها، هدهدته وناغته حتى خطفه النوم ثانية. أما شياطين الليل فاستمرت بالحومان حولهما. أخذت قيوطات* تصرخ وتضحك في أجمات الأشجار. أخذ البوم ينعق ويهسهس فوق رؤوسهم. وفجأة، قفز حيوان كبير وفر هارباً، مصدراً دبيباً عالياً على الأرض، الأمر الذي جعل يد كينو تتحرك بسرعة ممسكة بقبضة المدية الكبيرة، متخذاً وضعية الدفاع.

كانت موسيقى اللؤلؤة تقرع في رأس كينو، بينما اللحن الهادئ لأغنية العائلة، كان يعزف على طبقة أدنى من ذلك، وهما يشقان طريقهما، بأقدام تحتذي زوجين من الصنادل، وتمايلا على هذا النحو في وقت الغسق. سارا طوال الليل، وعندما حل الفجر، أخذ كينو يبحث عن ملجأ على جانبي الطريق، يمضيا النهار فيه. وبعد بحث حصيف، عثر على مكان، ليس بعيداً عن الطريق، كالذي يتخذه الأيل مسكناً له. كان هذا المكان نظيفاً ومموهاً تماماً بقصيفات من أغصان الأشجار الجافة، لا سيما من جهة الطريق. وعندما استقرت جوانا،

---

* القيوط: ذئب شمال أمريكي صغير. ـــ المترجم.

أخذت ترضع الطفل، بينما عاد كينو إلى الطريق بعد أن قطع غصن شجرة كبير، استخدمه في تكنيس جميع آثار أقدامهما، التي تُركت على الأرض، لمسافة طويلة، بما فيها تلك التي عرّجوا فيها إلى الملجأ، وذلك بحرص شديد، وعاد حيث جوانا.

عند أول ضوء، سمع كينو قرقعة عربة، فانطلق يرقب الطريق، الذي شاهد عليه عربة ذات عجلتين ثقيلة تسير الهوينا، تجرها ثيران مترهلة. وعندما غادرت العربة المشهد، ذهب إلى الطريق ليتأكد من عدم وجود آثار تشي بهم، فلاحظ أنه لا يوجد أي أثر لهما، فقد كان مرور العربة قد ساهم بذلك.

قدمت جوانا إليه بعضاً من كعكات، كانت أبولينا قد خبزتها لهما، وبعد برهة من الزمن نامت قليلاً. أما كينو فقد جلس وأخذ يتفرس في قطعة الأرض، التي أمامه. راقب حركة النمل، حيث كان طابور منه قريباً من قدمه، فقام بوضعه في طريقه. بعدها أخذت النملات تتسلق مشط قدمه، متابعة طريقها، ولم يأت كينو بأية حركة معترضة، في الوقت الذي كان فيه يرقب هذا المشهد.

أشرقت الشمس إشراقاً حاراً. لم يكونا بالقرب من الخليج الآن. لذا فإن الهواء هنا جاف وحار، الأمر الذي جعل أشجار الحراج تتشنج مصدرة زفيراً عبقت منه رائحة راتنجية عطرة. وعندما استيقظت جوانا، وكانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء، بدأ كينو يتحدث إليها عن أشياء تعلمها جيداً :

«كوني حذرة من ذلك النوع من الأشجار، مشيراً إليها. لا تلمسيها، وإذا قمت بذلك وبعدها لامست بأصابعك عينيك، ستُصابين بالعمى. وكوني حذرة من تلك الأشجار الحلوية. انظري! هنالك واحدة منها، إذا أحدثتِ فيها كسراً سترينها تنز دماً أحمراً، الأمر الذي يدل على فأل شر».

كانت جوانا تهز برأسها وتبتسم قليلاً في مواجهة سماع أشياء تعلمُها جيداً.

بعد انتهاء كينو من إلقاء محاضرته هذه، سألته قائلة:

«هل يقومون باقتفاء أثرنا؟ هل تظن أنهم سيحاولون العثور علينا؟».

أجاب كينو:

«سوف يحاولون. وكل من سيعثر علينا، سوف يأخذ اللؤلؤة. أجل، سيحاولون».

قالت جوانا:

«ربما، كان التجار على حق، واللؤلؤة ليست ذات قيمة. ربما كان كل هذا وهماً».

وصل كينو إلى حيث ملابسه، وجلب اللؤلؤة. ترك الشمس تلعب عليها، حتى أخذت تتوهج في عينيه:

«كلا». هذا ما قاله متابعاً: «لو أنها عديمة القيمة، لما كانوا قد حاولوا سرقتها».

سألته جوانا قائلة:

«هل تعرف الذين هاجموك؟ هل كانوا من التجار؟».

قال كينو:

«لا أعلم. لم أرهم».

تمعن في لؤلؤته، في محاولة منه لإيجاد رؤياه، وقال:

«عندما يتسنى لنا بيعها، سوف أشتري بندقية».

تابع كينو البحث عن بندقيته من خلال سطح اللؤلؤة المشع، إلا أنه لم ير سوى جسم معتم، يجثم على الأرض، وقطرات من دم تقطر من حلقومه. وقال بسرعة:

«سوف نتزوج في كنيسة عظيمة».

وفي اللؤلؤة شاهد جوانا ذات الوجه المصفوع، عائدة إلى منزلها عبر الليل. وأردف قائلاً باهتياج: «سوف يتعلم طفلنا القراءة».

وهنالك كان أيضاً وجه كوواتيتو، ثقيلاً ومحموماً من الدواء.

أخيراً، أعاد كينو اللؤلؤة إلى حيث كانت، أصبحت موسيقى اللؤلؤة تدق بشؤم في أذنيه، متداخلة مع موسيقى الشيطان.

أخذت الشمس الحارة تضرب على الأرض، لدرجة أن كينو وجوانا أخذا يلوذان بظلال شريط الأشجار. بينما كانت هنالك عصافير رمادية تتمختر على الأرض في الظلال. وفي مواجهة هذا الحر الشديد، قام كينو بتغطية عينيه مستخدماً القبعة ولف الدثار حول وجهه ليقيه من الذباب، وغط في موجة من النوم.

أما جوانا فلم تنم. جلست هادئة كالحجر، كما كان وجهها هادئاً أيضاً. بدا فمها منتفخاً، حيث لطمها كينو، وكان هنالك بضعٌ من ذباب يحوم حول الجرح الذي على ذقنها. إلا أنها جلست جلسة من يقوم بدور الحراسة، وعندما استيقظ كوواتيتو، أجلسته على الأرض أمامها، مراقبة حركاته وهو يتمطى ماداً ذراعيه، وآتياً بحركات من قدميه، كأنه يقوم بتمارين الصباح، فأخذت تبتسم له وتناغيه، حتى بدأ هو يبتسم لها أيضاً. التقطت غصن شجرة صغير من الأرض، وأخذت تداعبه به، ومن ثم قدمت له شربة ماء من قربة كانت مربوطة على حزامها.

تقلب كينو وهو يحلم، وأصدر صوتاً خرج من حنجرته، وتحرك ذراعه حركة تنم عن الاستعداد للقتال. وعلى الإثر وتوت قليلاً ونهض فجأة، بعينين مبحلقتين وأنف ينفث سماً. كان يصغي ويستمع فقط لهسيس المدى وهفهفة الحر الشديد.

سألته جوانا:

«ماذا هنالك؟».

أجابها قائلاً:

«هس».

قالت جوانا: «أ كنت تحلم؟».

قال كينو:

«ربما».

وكان يبدو عليه القلق، وعندما قدمت له كعكة مصنوعة من الذرة، أجَّل قضمها متفرغاً للتنصت. بدا عصبي المزاج ومرتبكاً. ألقى نظرةً سريعة في المدى، ورفع المدية الكبيرة وتحسس حد نصلها. وعندما أحدث كوواتيتو ضجة على الأرض، قال كينو:

«هَدئيه يا جوانا!».

قالت جوانا:

«ما الأمر؟».

أجابها قائلاً:

«لا أعلم».

أخذ يتنصت ثانية، في وقت كان يصدر عن عينيه ضوءُ حيواني. استقام واقفاً بهدوء، وبصمت مطبق شق طريقه عبر الأجمة إلى الطريق. لكنه لم يخط على الطريق، بل دخل مخبأً، شكلته بقايا أشجار شوكية، آخذاً بتفحص الطريق، الذي قدموا عليه.

فجأة، رآهم يتحركون. تيبس جسمه وأحنى رأسه وتراجع إلى الخلف، وأخذ يختلس النظر من خلف غصن شجرة كبير ملقى على الأرض. ومن هذه المسافة، استطاع رؤية ثلاثة أشكال بشرية، إثنين راجلين وثالثهم يمتطي حصاناً. غير أنه عرف من يكونون، الأمر الذي جعل موجةً من خوفٍ بارد تسيطر عليه. فحتى وهم على هذه المسافة البعيدة، استطاع أن يرى بأن الاثنين السائرين على الأقدام يتحركان ببطء وقد حنيا هامتيهما إلى الأرض. وبين حين وآخر كان أحدهما يصمت وينظر إلى الأرض ، ويأتي الآخر للانضمام إليه. كانوا من قصاصي الآثار، الذين يستطيعون اقتفاء آثار تسلق عنزة كبيرة القرون في جبال صخرية. إنهم شديدو الحساسية ككلاب الصيد. وهنا، قد يكون هو أو جوانا قد خرجت أقدامهما عن اخدود العجلات، وهؤلاء الناس من سكان الداخل، إنهم صيادون، يستطيعون قراءة أية علامة، حتى لو كانت انزياح بضع حبيبات من

الرمال. خلفهم سار رجل مكفهر الوجه، غطى أنفه بدثار، تدلت من على سرج حصانه بندقية، كان أخمصها يلمع تحت أشعة الشمس.

استلقى كينو، دون حراك كجذع شجرة. كان قابض الأنفاس، في وقت سبحت فيه عيناه في المكان، الذي كنّس فيه الطريق، فحتى التكنيس يمكن أن يُشكل رسالة ما لقصاصي الأثر. فهو يعرف جيداً صيادي وسط البلاد. في الريف، حيث هنالك طرائد قليلة، يتدبرون أمور حيواتهم، لأن لديهم قدرة على اصطياد هذه الطرائد القليلة المشتتة، وها هم يُطاردونه ليصطادوه. قفزا سوية إلى بقعة من الأرض وتحوطا حولها، كحيوانين شاهدا أثراً، فاندفعا إليه، بينما كان الخيّال ينتظر.

أصدر قصاصا الأثر بعض الهمهمات لبرهة من الزمن، ككلبي صيد وراء أثر مميز. في هذه الأثناء أمسك كينو المدية بقبضته وجعلها جاهزة للقتال. كان يعلم ماذا عليه أن يفعل، فيما إذا عثر قصاصا الأثر على الأثر المكنوس. حيث عندها يتوجب عليه القفز إلى الخيّال فيقتله بسرعة، ويستولي على البندقية. كانت هذه هي الفرصة الوحيدة المتاحة له في هذا العالم. وعندما تجمد الرجال الثلاثة على الطريق، حفر كينو حفرتين صغيرتين بأصابع قدميه المنتعلتين صندلاً، مستعداً للقفز دون إنذار ولكي لا تنزلق قدماه. ولم يمتلك سوى رؤية ضعيفة من تحت الغصن الساقط.

الآن، أخذت جوانا تسمع وقع حوافر حصان، في وقت باشر فيه كوواتيتو بالغرغرة. أسرعت فحملته ووضعته تحت الشال، وأعطته صدرها، الذي أعاده إلى هدوئه.

وحين اقترب قصاصا الأثر من كينو، استطاع الأخير رؤية ساقيهما وقوائم الحصان فقط، من بين أوراق وعيدان الغصن الذي اختبأ خلفه. شاهد أحذية الرجال السوداء اللون القاسية الجلد، وملابسهم البيضاء الرثة، كما سمع حفيف جلد سرج الحصان وصليل مهماز الخيّال. وقف قصاصا الأثر في موقع متأخر وأخذا يتفحصانه،

وتوقف الخيال عن المسير. رفع الحصان رأسه عالياً في مواجهة الحديدة المعترضة من اللجام، حيث كان اللجام يكز تحت لسانه، الأمر الذي جعله يصهل. بعدها استدار قصاصا الأثر إلى جهة الحصان وأخذا يدرسانه ويراقبان حركة أذنيه.

حبس كينو أنفاسه، ومؤخرته كانت تفرقع قليلاً، تقوّس ظهره قليلاً و تصلبت عضلات ذراعيه وساقيه، كما سال خط من اللعاب الحلو من زاويتي شفتيه. لبرهة طويلة من الزمان، انحنى قصاصا الأثر على الطريق ، وبعدها تحركا عليه ببطء وهما يقومان بدراسة الأرض التي أمامهما، أما الخيال فقد كان يتبعهما. سيعودان. كان كينو يعرف ذلك. تحاور هذان الرجلان طويلاً، وتوقفا. جريا عدواً. توقفا.. وهلمجرا. أخذا يرسمان دوائر، يحومان، يفتشان، ينقبان، يعدوان، وفي نهاية المطاف يعودان إلى المكان الذي استوقفهما بداية الأمر. تقهقر كينو من مكانه عائداً، دون أن يراعي محو آثار خطواته. لم يفعل ذلك، لأن هنالك إشارات أخرى عديدة، كثير من أغصان الأشجار المكسورة وأحجار مقتلعة ووقع أقدام كثيرة. وهنا، أخذ الذعر يسيطر على كينو الآن، ذعرٌ طيارٌ. سوف يقتفي الرجال أثره، هذا ما هو متأكد منه. ليس هنالك مخرج، ما عدا اجتراع القدرة على الطيران. تطرف بعيداً عن الطريق وتوجه بسرعة وخفة إلى الملجأ، حيث جوانا، التي أخذت تتمعن فيه بنظرات استفهام.

قال لها:

«قصاصو الأثر. قَدِموا».

عندها خيمت عليه مشاعر من القنوط واليأس، كما اكفهر وجهه وأخذت عيناه تقرآن الحزن: «ربما يجب عليّ أن أدعهم يأخذونني».

وغريزياً، نهضت جوانا على قدميها وأمسكت ذراعه بيدها، وقالت بصوت أجش:

«اللؤلؤة في حوزتك. أتظن أنهم سيدعونك حياً، لتقول بأنهم سرقوها منك؟».

راحت يده تبحث بوهن عن اللؤلؤة، في مكان ما تحت الملابس، بينما أخذ يقول بضعفٍ بادٍ: «سوف يعثرون عليها».

قالت جوانا: «تعال! تعال!».

وعندما لم يستجب، قالت:

«أتظن أنهم سيتركونني حية؟ أتظن بأنهم سيتركون الصغير حياً؟».

باشر هذا الجرس يدق في دماغه، في الوقت الذي كانت فيه شفتاه وعيناه متجمدةً. وفجأة قال:

«تعالي! سوف نعبر الجبال. فربما نستطيع الإفلات منهم هناك».

باشر بجمع القَرعات والأكياس الصغيرة، التي شكلت الملكية الوحيدة لهم. حمل كينو صرة في يده اليسرى، لكن المدية الكبيرة كانت معلقة بحرية في يده اليمنى. سار في المقدمة مُبعداً الأغصان لعبور جوانا، وكانت وجهتهم الغرب، باتجاه الجبال الصخرية العالية. وأخذا يهرولان عبر تشابك أغصان الأشجار الصغيرة. انحدرت الشمس من عل على أرض مشققة، والنباتات الخضراء أخذت تولول احتجاجاً. وكأنت الجبال الغرانيتية العالية المتآكلة من التعرية، منتصبةً في عباب السماء. لم يحاول كينو سلوك الممرات المختصرة، بل تقصد سلوك الوعرة منها، حيث كانا يجبران الأشجار الصغيرة على ذرف الأغصان الجافة. وهذا هو كينو يركض باتجاه المناطق الجبلية، كما تفعل الحيوانات، عندما تتعرض للمطاردة.

بدت هذه المنطقة شحيحة بالمياه، تعج بأشجار الصبار، المتميزة بقدرتها على تخزين الماء في أوراقها، وبجذورها التي تمتد عميقاً في الأرض، حيث الرطوبة. كما أنك تسير فيها دون أن تشعر أنك تطأ تربة، بل سائراً على صخور مهشمة، بدت على شكل مكعبات صغيرة، أو ألواح كبيرة امتلأت بالشقوق، لا مياه فيها. لكنك من حين لآخر، قد تلحظ بعضاً من عشبٍ جافٍ حزين بين الأحجار، عشب بدا عليه أنه

لم يتعرض سوى لزخة مطر واحدة، وأنه نما وأسقط بذوره ومات. شاهدت مجموعة من العلجوم الأقرن* الأسرة عابرة، فأدارت رؤوسها التنينية الدوارة حول أجسامها. وبين هذا وذاك كانت أرانب أمريكية** برية كبيرة تقفز هنا وتعبر من هناك، باحثة عن ظلال تلجأ إليها. وفي مقابل هذه الحرارة العالية التي سيطرت على هذه الصحراء، كانت الجبال الصخرية البعيدة تبدو باردة مرحبة بالوصول إليها.

علم كينو ماذا سيحصل. فبعد أن يقطع قصاصو الأثر مسافة ما من الطريق، سوف يصبحون أكثر خشية من أن يكونوا قد فقدوا الرشاد، الأمر الذي سيجعلهم يعودون إلى الوراء، للبحث والاستدلال والمحاكمة، وبعد برهة من الوقت سوف يعثرون على الملجأ، الذي كان يأوي كينو وجوانا. ومن هنالك سيصبح من السهولة بمكان اقتفاء آثار سير الأسرة، حيث هذه الأحجار الصغيرة، أغصان أشجار ساقطة، ونقاط عبور جافة، لم تحل دون ترك بصمات أقدام. وظهر على كينو كأنه يراهما في عقله، وهما يعبران على طول الأثر مزمجران بلهفة، وإلى الخلف منهما الخيال الأسمر نصف اللامبالي حاملاً بندقيته. وهذا الأخير سيُنفذ عمله في نهاية الأمر، ولن يعود بهما.

أوه، عادت موسيقى الشيطان تعزف عالياً في رأس كينو الآن، إنها تصدح مع ضربات الشمس، ومع فحيح وخشخشة الثعابين. لم تكن عالية فحسب، بل أصبحت ساحقة وسامة الآن، لكن أسرار وصرخات قلبه أعطت لهذه الموسيقى طبقات خفيفة من الأنغام والألحان.

---

* العلجوم الأقرن: حيوان حبلي ذو أرجل شبيه بالزواحف، يعيش في أمريكا الجنوبية. — المترجم.

** Jack rabbit : أرنب ذو أذنين جد طويلتين وقائمتين طويلتين. — المترجم.

باشر الدرب صعوده، ومع ازدياد حدة الصعود، أخذت الصخور تبدو أكثر ضخامة. والآن، كان كينو قد خلق مسافة قصيرة بين قصاصي الأثر وأسرته. و الآن عند أول مرتفع، توقف. قفز على جلمود صخر كبير وأخذ ينظر إلى الخلف متفحصاً امتداد الريف، غير أنه لم يرقبّ أعداءه، ولا حتى الخيّال المتطي صهوة جواده، من خلال الأجمة. هرعت جوانا لتحتمي في ظل الجلمود. رفعت قنينة الماء إلى شفتي كوواتيتو، الذي أخذ لسانه الجاف يمص منها متلذذاً. تمعنت في كينو وهو ينزل هابطاً من الجلمود، فرأته يتفحص كاحليها، اللذان تجرحا وخُدشا من الأحجار وشجيرات الدغل، وفي الحال أسدلت عليهما تنورتها بسرعة. بعدها قدمت القنينة إليه، إلا أنه أومأ برأسه رافضاً. كانت عيناه تشعان في رأسٍ بان عليه التعب. رطّب شفتيه الجافتين بلسانه.

وقال:

«يا جوانا! سوف أتابع مسيري، وستتريثي أنت. سوف أقودهم عبر الجبال، وعندما يعبرونك، ارحلي إلى الشمال، إلى لوريتو أو إلى سانتا روزاليا. وبعدها، إذا استطعت أن أنجو سوف أذهب إليك. إنها الطريقة الوحيدة الآمنة».

بحلقت فيه بعينين تقدحان شرراً، وقالت:

«كلا. سوف نرحل معاً».

قال بنبرة جافة:

«أستطيع أن أسير بصورة أسرع، إذا كنت وحيداً. وأنت برحيلك معي تعرضين الصغير لأخطار أكثر».

قالت جوانا:

«كلا».

قال كينو:

«يجب عليك. هذا ما يرشد إليه العقل، بالإضافة إلى كونها إرادتي».

قالت جوانا:

«كلا».

أخذ يبحث في وجه جوانا عن معلم من معالم الضعف، عن خوف أو حيرة، إلا أنه باء بالفشل. كانت عيناها تشعان صفاءً. في مواجهة ذلك، هز كتفيه دلالة على الاستسلام للأمر الواقع، مطمئِناً نفسه على شحذ قواه منها. وعندما جدّا في السير لم يبق أثر لتردد طيّار.

بدا على طبيعة الأرض تغيراً وهي تصعد في الجبال. والآن، أصبحا أمام جلاميد من الغرانيت ممتدة، فيها صدوع كثيرة العدد. أخذ كينو يسير على أحجار مختلفة الأشكال، قافزاً من واحدٍ إلى آخر. كان عالماً أنه أينما كان قصاصو الأثر قد فقدوا الأثر، سوف يكرون عائدين للبحث عنه، بعد أن يكونوا قد فقدوا قسطاً من الوقت. لذا فإنه سوف لن يتبع طريقاً مستقيماً بين الجبال، من الآن فصاعداً، بل سيسير بطريقة الزقزاق، ففي أحيان يكر إلى الجنوب ويترك إشارة، وبعدها يتابع مخترقاً منحدر عميق بين جبلين شاهقين. أخذ الدرب يشهق علياً، لذا فإنه أخذ يلهث، أكثر مما يصعد. تحركت الشمس نزولاً باتجاه أسنان صخور الجبال الجرداء. وتوجه كينو نحو صدع مُعتم في سلسلة الجبال. إذا كانت هنالك أية مياه، فإنها ستكوّن هنالك حيث يمكنه رؤية آثار خضرة فيه، حتى لو كانت على مسافة بعيدة، لأنه لا بد لها أن تكون قد زخرفت المحيط بنباتات مختلفة الألوان. وإذا كان هنالك معبر عبر سلسلة صخور ملساء، فإنه سيكون قرب هذه التصدع العميق. وسيداهم عامل المخاطرة قصاصي الأثر، الأمر الذي سيوقفهم ملياً، لكن زجاجة الماء الفارغة لم تدع له مجالاً للتفكير. وعندما هبطت الشمس، جاهد كل من كينو وجوانا لتسلق المنحدر متجهان نحو الصدع الكبير.

في الأعلى وفي الجبال الصخرية، ذات اللون الأشهب، وتحت ذراها المتجهمة، تناثرت مياه من نبعٍ صغير خارجةً من شقوق

الصخور، غذاه ثلجٌ محمي في ظل دائم. وهو في مثل هذه الأوقات من السنة، يبدأ بالموت متحرراً من إنائه الصخري والطحلب، الذي تجمد فيه. وهو دائماً يعبر عن ذلك بتدفقات إلى الخارج، تقوم بتنظيف الصخور السفلية. وفي الأوقات التي تهطل فيها أمطار غزيرة تصبح كتل الجليد هذه طازجة، وترسل بعض خيوط من مياه بيضاء تنز إلى أسفل صدع الجبل الكبير، والتي تتساقط على شكل شلالات شحيحة مؤقتة.

وأثناء عبور كينو وجوانا صعوداً على هذا المنحدر، كانا يراقبان دفقات الماء الثلجي هذه تتساقط في بركة، التي بعد أن تفيض مياهها، تنفث دفقات أخرى من المياه، تتهاوى مئات الأقدام إلى الأسفل، وتتهادى في بركة أخرى، وهكذا تصل دفقات المياه هذه إلى أراضي الريف المستوية، حيث تختفي معظمها هنالك وتلتهما الأرض العطشى. أما البقية الباقية، فإنها تشكل بعض البرك الصغيرة، التي تهرع إليها الحيوانات من أميال عديدة، قاصدة إرواء ظمئها. وهنالك كنت تجد الخراف والماعز والبوم والراكون* وصولاً حتى الفئران، جميعها تأتي لترعى الماء. أما الطيور التي تمضي النهار في الأجمات الدغلية، فإنها تأتي ليلاً إلى البرك الصغيرة، التي تشكلت على الدرجات الصخرية الأولى للجبال. وإلى جانبي هذه الجداول الشحيحة بالمياه، كانت تنمو مستعمرات من النباتات، من عنب بري وشجيرات غار وأنواع مختلفة من السرخس والخبيزة وأعشاب البمب**، نمت فيها عصيات ذات أهداب. وفي البرك كانت تعيش الضفادع والخيتعور*** المائي وحيات الماء، جميعها احتشدت في قيعانها. وكل الأشياء التي عشقت المياه، قدمت إلى هذه الأمكنة

---

* الراكون: حيوان شمال أمريكي ثدي من اللواحم. ـــ المترجم.

** البمب: سهل معشوشب مترامي الأطراف في أمريكا الجنوبية. ـــ المترجم.

*** الخيتعور: بق طويل القوائم يجري فوق الماء الراكد. ـــ المترجم.

القليلة الضحلة. أما القطط فكانت تلتقط فرائسها هناك، في الوقت الذي تأخذ فيه برشف بعض الماء. تعتبر البرك الصغيرة أمكنة تعج بالحياة، بسبب احتوائها على الماء، وفي الوقت ذاته أمكنة للجريمة، بسبب الماء أيضاً.

كان أدنى مدرج من مدرجات الجبل، الذي تتجمع جداول المياه عليه، قبل أن تتساقط من على ارتفاع قدره حوالي مائة قدم، ومن ثم تختفي في صحراء جافة، كان هذا المدرج عبارة عن قطعة حجرية كبيرة واسعة ومستديرة، يعلوها بعض الرمال. كان هنالك خيط رفيع يهبط من المياه إلى البركة، إلا أنه مع ذلك كان كافياً لجعل هذه البركة ممتلئة بالماء على الدوام، وفي الحفاظ على السرخس دائم الخضرة على جانبي تدفق هذا الخيط. وكان هنالك عنب بري يعريش على الصخور، وأنواع كثيرة أخرى من النباتات، تلك التي وجدت راحتها في ذلك. أما طوفانات البركة فكانت قد شكلت شاطئاً رملياً صغيراً في الجانب الذي كانت فيه تطفو البركة، وهنالك بقلات مائية خضراء أخذت تنمو في هذا الرمل الرطب. بدا هذا الشاطئ حاداً تعتريه بعض الندوب، ظهرت عليه بصمات أقدام مختلف أنواع الحيوانات، التي قدمت إليه، إن كان ابتغاءً لشرب الماء أم القنص.

قطعت الشمس الجبال الصخرية، عندما كان كل من كينو وجوانا يعبران منحدراً شديد الانكسار ويتوجهان أخيراً إلى الماء. ومن هذا المنحدر، كان بإمكانهما أن يشرفا على صحراء أكلتها الشمس، تمتد من خليج أزرق اللون، على مسافة بعيدة. وصلا أخيراً إلى البركة، وهما على أشد الإنهاك، وعلى الفور ركعت جوانا على ركبتيها وأخذت بعض الماء من البركة وغسلت به وجه كوواتيتو، وبعدها ملأت الزجاجة وقدمت له جرعة من الماء. كان الطفل ضجراً جداً ومشاكساً، واستمر يصرخ صراخاً خفيفاً حتى قدمت له جوانا صدرها، بعدها أخذ يقرقر لها ويناغيها. أما كينو فعب من البركة كمية كبيرة من الماء وأروى ظمأه. نهض كينو وابتعد قليلاً عن

حافتها، وأرخى عضلاته وأطراف جسمه، في الوقت الذي كان فيه يراقب جوانا وهي تقوم بإرضاع الطفل، وبعدها توجه إلى حافة المنحدر، المكان الذي تتساقط منه المياه إلى البركة، وأخذ من هنالك يقدر المسافات بحرص شديد. تركزت عيناه على نقطة وتصلب جسمه. حيث على مسافة بعيدة من المنحدر رأى شبحي قصاصي الأثر، وقد ظهرا من على هذه المسافة كنقطتين أو كنملتين زاحفتين خلفهما نملة ضخمة.

استدارت جوانا للتفتيش عنه، فرأت ظهره متيبساً.

سألته بهدوء:

«كم يبعدون؟».

أجاب قائلاً:

«سيصبحون هنا مع حلول المساء».

تمعن قليلاً في مصطبة المنحدر، حيث تتدفق المياه إلى الأسفل وقال:

«يجب أن نتوجه إلى الغرب».

وفي هذه اللحظة أخذت عيناه تبحثان في الكتف الصخري خلف الصدع الكبير. وعلى علو ثلاثين قدماً من هذا الملجأ، شاهد مجموعة صغيرة من الكهوف المتآكلة. خلع كينو صندله وأخذ يتسلق المنحدر ويعدو باتجاه هذه الكهوف، بينما كانت الأحجار الصغيرة تتساقط من تحت قدميه. وعندما وصل إلى الكهوف، ألقى نظرة عليها وتفحصها، فوجد أن عمق كل منها لا يتجاوز بضع أقدام، وهي بالذات تتعدى كونها تجاويف جرفية، إلا أن انحدارها إلى الداخل كان سلساً. اندفع كينو إلى أكبرها حجماً واستلقى فيه، وتأكد بأنهم لم يصبحوا مرئيين من الخارج. إثر ذلك، توجه إلى جوانا.

خاطبها قائلاً:

«عليك بالصعود إلى هناك، فربما لا يستطيعون العثور علينا في ذلك المكان»، مشيراً إلى حيث الكهف الكبير.

ودون أية استفهامات، عبأت زجاجة الماء حتى قمتها، وساعدها كينو في الصعود إلى الكهف، وبعدها عاد وأحضر أكياس الطعام وناولها إياها، بينما كانت جوانا تجلس في فتحة الكهف وتراقبه، لاحظت أنه لم يحاول إخفاء آثار مكوثهما على الرمال. وبدلاً من ذلك، قام برفع جرف دغلي من على حافة الماء، وسحبه، جارفاً بطريقه السرخس وأغصان الداليات البرية. وعندما صعد بحدود مائة قدم إلى الطرف الثاني، نزل إلى الأسفل مرة أخرى. تمعن بحرص شديد صخرة الملجأ الملساء، التي تنتهي بالكهف، ليرى إن كان هنالك أي أثر لعبور، وأخيراً أكمل صعوده ودخل إلى الكهف، وجلس إلى جوار جوانا.

قال كينو:

« عندما يصلون، يجب أن نهرب، نزولاً إلى الأرض المنخفضة ثانية. أخشى أن يبدأ الطفل بالصراخ. يجب أن تحرصي للحيلولة دون ذلك».

قالت جوانا:

«سوف لن يصرخ».

ورفعت رأس الطفل إليها وأنعمت النظر في عينيه. وما كان من كينو إلا أن حدق فيها بجدية.

قالت جوانا:

«إنه يعلم بالأمر».

والآن، استلقى كينو في مدخل الكهف، وأركى وجنتيه على ذراعيه وأخذ يراقب ظل الجبل الأزرق، وهو يتحرك عبر الصحراء الدغلية في الأسفل، حتى وصل إلى الخليج، وحمرة الظل الطويل، الذي تماوج فوق الأرض.

استغرق وصول قصاصي الأثر وقتاً طويلاً، لأنهم على ما يبدو، كانوا يعانون من مشكلة ضياع الأثر، الذي يدل على كينو. وفي وقت الغسق، كانوا قد وصلوا إلى البركة الصغيرة. وأصبح الثلاثة جميعهم

متـرجلين، لأن الحصــان لم يسـتطع تسـلق المنحـدر الأخـير الشـديد الانحدار. ومن الأعلى، بدوا عبارة عن أشكال بشرية نحيلة، في الأصيل. هرع قصاصا الأثر إلى الشاطئ الصغير، وأخذا يتنقلان من مكان إلى آخر ورأيا ممر صعود كينو إلى أعلى الجرف، قبل أن يشربا. جلس الرجل الذي يحمل البندقية ليرتاح، وجثم الآخران بالقرب منه. وفي المساء كانت بصائص السجائر التي أخذوا يدخنونها تومض وتنوص. وبعدها تمكن كينو من التعرف على أنهم يتناولون الطعام، كما وصلت إليه أصوات لغطهم الناعم.

خيم الظلام، الذي كان عميقاً وأسوداً في صدع الجبل. اقتربت الحيوانات التي ترعى على البركة، وبعد أن شمت رائحة الإنسان، استدارت واختفت في الظلام.

تحسس كينو همهمة خلفه. كانت جوانا تهمس: "كوواتيتو"، حيث كانت تهدهده ليبقى هادئاً. سمع كينو أنين الطفل، واستخلص من نبرة هذا الأنين أن جوانا كانت قد غطت رأسه بالشال.

ومن على الشاطئ، في الأسفل، بانت شعلة عود ثقاب، التي من خلالها بومضة عين رأى كينو رجلين مضطجعين نياماً، متكوري الجسدين ككلبين، بينما كان الثالث يراقب، كما رأى وميض البندقية من خلال ضوء عود الثقاب. بعدها مات ضوء عود الثقاب، بعد أن ترك صورة في عيني كينو، إثنان ينامان متكورين، وثالث يلعب بالرمال وبندقية بين ركبتيه.

تحرك كينو، بصمت، إلى داخل الكهف. أما جوانا فكانت عيناها تعكس بريق نجمة خفيضة. دنا كينو منها بهدوء ووضع شفتيه بالقرب من عنقها. وقال:

«هنالك طريقة».

أجابته جوانا، بعد أن أدركت مقصده:

«لكنهم سوف يقتلونك».

قال كينو:

«يجب أن أستطيع الوصول إلى الرجل الذي يحمل البندقية أولاً، بعدها سوف أصبح على ما يرام. إثنان منهم نائمان».

سحبت يدها من تحت الشال، وشدت بها على ذراعه:

«سوف يرون ملابسك البيضاء في ضوء النجوم».

قال كينو:

«كلا، ويجب أن أذهب قبل أن يظهر القمر».

أخذ يبحث عن كلمة لطيفة، وقال أخيراً:

«إذا تمكنوا من قتلي، اضطجعي بهدوء. وعندما يرحلون، اذهبي إلى لوريتو».

ارتجفت يدها قليلاً، وهي تمسك بمعصم كينو.

قال كينو:

«ليس هنالك من خيار آخر. إنه الطريق الوحيد. سوف يعثرون علينا في الصباح».

قالت بصوت مرتجف قليلاً:

«اذهب فليصحبك الله».

حدق بها متمعناً بعينيها الكبيرتين. حرر يده، وأخذ يفتش بها عن كوواتيتو، حتى عثرت عليه، وأركى راحة يده لبرهة على رأس الطفل. بعدها رفع كينو يده عن كوواتيتو وجس وجنة جوانا، في وقت كانت فيه تحبس أنفاسها.

في مواجهة السماء ومن عتبة الكهف كانت جوانا تراقب كينو وهو ينزع ملابسه البيضاء، التي على الرغم من اتساخها واهترائها، ظن أنها قد تصبح مرئية في هذا الظلام الدامس. وكان جلده البني أفضل حماية له. وبعد ذلك، رأت كيف ربط تميمته بساعد المدية المصنوعة من عظام القرون، التي ربطها إلى خصره، وحرر يديه ولم يعد إلى وداع جوانا. لبرهة من الزمن، بدا جسده أسود اللون، في عتبة الكهف، رابضاً هادئاً، وبعدها انطلق.

تحركت جوانا إلى عتبة الكهف، وأخذت تنظر إلى الخارج. بدت جوانا للعيان كبومة، من خلال شق الجبل، فيما كان الطفل نائماً تحت الدثار على ظهرها، ووجهه باتجاه رقبتها وكتفيها. كانت جوانا تتحسس نفسه الدافئ على بشرتها، في الوقت الذي كانت فيه توتوت بمختلف أنواع الدعاء والاستجداء من مريم العذراء، وشفاعاتها القديمة، وذلك ضد الأشياء السوداء اللاإنسانية.

بدا الليل أقل ظلاماً، عندما كانت تراقب الخارج، والسماء كانت تشع قليلاً من الشرق، وذلك عند الأفق الذي أرتقب منه بزوغ القمر. وحينما نظرت إلى الأسفل، استطاعت رؤية سيجارة الرجل الحارس.

تقدم كينو شيئاً فشيئاً كسحلية بطيئة، تقدم إلى أسفل كتف صخرة ملساء. أدار أنشوطته المعلقة على رقبته، كي تبقى المدية معلقة على مؤخرته، بحيث لا تطرق بالصخور. وأخذت أصابعه تتعمشق بالجبل، وعثرت أصابع قدميه المفرودة على مساند لها باللمس، بطريقة لا تجعله يهوي إلى الأسفل. وكانت أي حركة أو حتى همسة أو حفيف صغير، سينهض الأعداء، الذين كانوا سيتحسسون أيضاً أي صوت غير متناغم مع أصوات الليل. لكن الليل لم يكن ساكناً، حيث كانت ضفادع الأشجار الصغيرة، التي تعيش بجوار جدول الماء، تُصدر أنغاماً أشبه بأنغام الطيور، بالإضافة إلى أصوات الزيزان، التي هي أقرب إلى أصوات طرقات على الحديد، التي هي الأخرى كان يعج بها منحدر الجبل. لم تكن موسيقى كينو الخاصة تصدح في رأسه فحسب، بل كانت نبضات موسيقى العدو ضعيفة لدرجة التلاشي، و أغنية العائلة قدمت قوية وحادة كنعيق البومة. عادت أغنية العائلة إلى الحياة الآن، وأخذت تقوده إلى العدو الأسود. وتراءى له أن أزيز الزيزان أخذ يُكرر لحنه، وأخذت ضفادع الأشجار تغني بعض فقراته.

كان كينو ينحدر بصمت كشبح إلى أسفل وجه الجبل الأملس. يحرك قدمه اليمنى بضع إنشات ويتبعها بيده اليسرى بذلك القدر إلى الأسفل، ومن ثم يأتي دور القدم اليسرى، واليد اليمنى، وهكذا دواليك، الأمر الذي كان يجري ببطء شديد، لدرجة أنك تشعره دون حراك. كان فاه كينو مفتوحاً، لكي لا ينطلق أي صوت من نفسه، لأن كينو كان متيقناً أنه غير مرئي. فإذا استشعر الحارس بأية حركة، فإنه سينظر إلى المكان المظلم باتجاه الصخور، حيث كان هو معلقاً. لذا فكان على كينو أن يتحرك بتلك الدرجة من البطء، التي لا يُلفت فيها أنظار الحارس. لذا فإن أمر الوصول إلى القاع استغرقه وقت طويل، حتى تسنى له اللطي خلف شجيرة نخل صغيرة. تجلمد قلبه في صدره، أما راحتا يديه ورأسه فأصبحت رطبة. استجمع كينو قواه وأخذ نفساً عميقاً، لكي يدخل الطمأنينة إلى نفسه.

أصبح لا يفصله عن عدوه سوى عشرين قدماً، وهنا حاول تذكر طبيعة الأرض التي تفصل بينهما. هل هنالك أي حجر قد يتعثر به أثناء الانتقال؟ حرك ساقاه ليزيل التوتر عن عضلاتهما، ولاحظ أنهما تهتز، بعد هذا التوتر الطويل. وبعدها أخذ ينظر بقلق إلى الشرق. فالقمر سيبزغ بعد لحظات قليلة، ويجب عليه أن يشن الهجوم قبل بزوغه. كانت الخطوط العامة للحارس واضحة المعالم، إلا أن الرجلين النائمين كانا خارج قوس رؤيته. إنه الحارس، الذي يتوجب على كينو العثور عليه، إيجاده بسرعة، ودون تردد. وبصمت سحب تميمته من على كتفه وحرر قبضة المدية الكبيرة من الانشوطة.

تأخر كثيراً، فبينما قرر الاندفاع من مخبئه، لاحت حافة القمر الفضية فوق أفق الشرق.

لقد كان قمراً كهلاً وأشعثاً، إلا أنه رمى ضوءاً قاسياً وظلاً أيضاً على المنحدر الجبلي، الأمر الذي جعل كينو يستطيع رؤية شبح الحارس الجالس على شاطئ البركة الصغيرة. تمعن الحارس القمر جيداً، وأشعل سيجارة أخرى، بعد أن كانت شعلة عود الثقاب قد

أنارت وجهه المظلم لبرهة من الزمن. لا يجب أن يكون هنالك أي انتظار؛ فعندما يدير الحارس رأسه، يجدر بكينو الانقضاض. كانت ساقاه متوترتن كالنابض.

وفجأة، أتى صراخ خافت من الأعلى. أدار الحارس رأسه ليصغي، وبعدها وقف، واستيقظ أحد النائمين، و سأل بهدوء:

«ماذا هنالك؟».

قال الحارس:

«لا أدري. يبدو كأنه صراخ؛ فقد يكون إنساني، ربما يشبه صراخ طفل».

قال الرجل الذي كان نائماً:

«لا تقدر على الإخبار. إنه عواء القيوط* وجروه. كنت قد سمعت عواء القيوط، وكان يشبه صراخ طفل رضيع».

انهمرت قطرات من العرق علَى جبهة كينو، وتساقطت على عينيه، وأحرقتهنّ. وصل صوت الصراخ الخافت ثانية ونظر الحارس إلى الأعلى، إلى التلة، إلى الكهف المظلم.

قال الحارس:

«قد يكون قيوطاً».

وسمع كينو حركة شبيهة بقرقعة بندقية.

«إنه قيوط، وهذا سيوقفه عن الصراخ»، هذا ما قاله وهو يرفع السلاح عالياً.

كان كينو في منتصف قفزته عندما لمعت ماسورة البندقية، على شكل صورة في عينيه. تمايلت المدية الكبيرة وانغرزت انغرازاً عميقاً. ضربة انغرزت في العنق وغارت عميقاً في الصدر، وأصبح كينو عبارة عن آلة رهيبة الآن. اختطفت البندقية، في وقت انتزع فيه المدية. شكلت قوته وحركته وسرعته مجتمعة هذه الآلة، التي من خلالها

---

* القيوط: ذئب شمال أمريكي صغير. ـــ المترجم.

اندفع وحطم رأس الرجل الجالس، كما لو كان رأس بطيخ. أما الرجل الثالث فقد فر هارباً كالسلطعون، واخترق البركة واندفع يتسلق المنحدر باهتياج، حيث كانت المياه تنحدر على شكل خيط رفيع. تعلقت ساقاه وذراعاه بجذع كرمة برية، وأخذ يربر ويئن وهو يُحاول النهوض. إلا أن كينو أصبح بارداً ولدوداً كالفولاذ. وبتروٍ تشبث بعتلة البندقية، ورفع فوهتها وصوب بهدوء وأطلق النار. شاهد عدوه يتدحرج إلى البركة. أخذ كينو يفشخ بخطوات واسعة في الماء. وفي ضوء القمر استطاع أن يرى عينين خائفتين مجنونتين، مما جعله يصوب فوهة البندقية إلى ما بينهما ويُطلق النار.

بعدها وقف كينو وقفة غير الواثق، كأن خطأ ما قد حدث، فبعض الإشارات كانت تحاول اختراق ذهنه. صمتت ضفادع الأشجار والزيزان الآن. وبعدها تحرر ذهن كينو من تركيز نظراته إليه، وتعرف على الصوت. العويل والنواح والصرخات الهستيرية من الكهف الصغير، الذي يقع على أحد جوانب الجبل الصخري، صراخ الموت.

☆ ☆ ☆

كل إنسان في لاباز يتذكر عودة الأسرة، قد يكون هنالك بعض المسنين الذين شاهدوا هذه العودة، لكن أولئك الذين سمعوا الحديث من آبائهم أو أجدادهم، يتذكرون ذلك إلى الأبد. إنه حدث، كما لو كان حدث لكل شخص.

كان الوقت متأخراً من عصر ذهبي، عندما هرع صبيان صغار بهستيرية إلى المدينة ونشروا خبر رجوع كينو وجوانا. كل الناس، قدموا ليُشاهدوهما. كانت الشمس آخذة في الاختفاء خلف الجبال الغربية، والظلال انتشرت طويلاً على الأرض. وربما كان هذا ما ساهم في خلق انطباع عميق عند أولئك الذين شاهدوهما.

قدم الاثنان، من الطريق الريفي الكثير الأخاديد، قدما إلى المدينة، ولم يكونا يسيران في رتل، كينو في المقدمة وجوانا إلى خلفه، بل سارا جنباً إلى جنب. كانت الشمس إلى الخلف منهما، وظلالهما ترامت إلى الأمام، وبدا كأنهما يحملان معهما برجان من الظلام. كانت هنالك بندقية مستلقية على ذراعه وشال جوانا مترامياً على كتفها. وفي هذا الشال صرة ثقيلة.

ظهرت على الشال بقع جافة من الدماء، وكانت الصرة تتهادى قليلاً مرددة لحن خطو صاحبتها. كان وجهها قاسياً وغضناً وكأنه مجلود بالسياط، بانت عليه اليقظة في مواجهة الإنهاك. وعيناها الواسعتان كأنهما كانتا تغوصان في جوهر ذاتها. أما في حركتها وتنقلات قدميها، فظهرت كأنها تتمختر في فردوس. كانت شفتا كينو رفيعتان وحنكه مشدوداً، وكل من رآه حينها قال عنه أنه قدم حاملاً الخوف معه، وكان خطراً كعاصفة متصاعدة. كما قال الناس

أن الاثنين ظهرا وكأنهما قادمين من تجربة إنسانية مريرة، وبأنهما كانا كمن يسير على الآلام، أو أنهما خرجا من الجحيم، بعد أن حررتهما قوة سحرية. وهؤلاء الناس الذين اندفعوا ليشاهدونهما تجمهروا ثانية وسمحوا لهما بالعبور، دون أن يخاطبونهما بشيء.

سار كل من كينو وجوانا في المدينة، وكأنها لم تكن قائمة في مكانها. لم تكن عيونهما تُحدق لا إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولا إلى الأسفل، ولا إلى الأعلى، بل حدقت إلى الأمام فحسب. تحركت سيقانهما بعنف قليلاً، كحركات الدمى المصنوعة بدقة، وكانا يحملان قوائم من خوف أسود. وبينما كانا يسيران في مدينة الأحجار والجص، أخذ السماسرة يختلسون نظرات إليهما من وراء النوافذ، وتلصص الخدم بعيون منفردة، من خلال ثقوب الأبواب، وأخفت النساء وجوه أطفالهن تحت تنانيرهن. تابع كينو وجوانا سيرهما جنباً إلى جنب عبر مدينة الأحجار والجص، وبعد أن قطعاها اتجها إلى ضاحية المنازل الدغلية، في وقت كان فيه الجيران يرتّدون إلى الخلف، مفسحين الطريق لهما. رفع جون توماس يده محيياً، دون أن ينطق بالترحيب كلاماً، وترك يده مرفوعة في الفضاء، في تعبير ينم عن شك بالأمر.

وحينما وصلا إلى حافة الماء، توقفا وأخذا يتمعنان في الأفق البعيد، المترامي فوق الخليج. ألقى كينو البندقية على الشاطئ، وأدخل يده في قميصه والتقط اللؤلؤة العظيمة. تمعن سطحها فوجده رمادياً متقرحاً. حينها شعر كأن عيوناً شريرة من اللؤلؤة تُبحلق فيه، وشاهد نوراً ملتهباً. وعلى سطح اللؤلؤة رأى عينين مشدوهتين، كانت للرجل الذي سقط في البركة. كما شاهد على سطحها كوواتيتو، ممدداً في الكهف الصغير، وقد اخترقت رأسه رصاصة. بدت اللؤلؤة قبيحة الشكل وذات لون رمادي، كلون ورم خبيث.

سمع كينو موسيقى اللؤلؤة، التي كانت مشوهة وطائشة. ارتجفت يد كينو قليلاً، والتفت باتجاه جوانا وقدم لها اللؤلؤة. كانت

جوانا تقف إلى جانبه وصرتها الميتة فوق كتفها. بحلقت في اللؤلؤة التي استلقت في راحة يد كينو، لبرهة من الزمن، ثم نظرت في عيني كينو وقالت بحرقة:

« لا، أنت».

لوح كينو بذراعه إلى الخلف وقذف اللؤلؤة، بما أوتي من قوة. راقباها وهي تختفي متوهجة متلألأة تحت غروب الشمس. شاهدا رشاشاً من المياه متصاعدا من بعيد. تجمدا جنباً إلى جنب يراقبان الأفق البعيد، لزمن طويل.

غاصت اللؤلؤة في مياه خضراء رقراقة، متخذة وجهتها نحو القاع، في وقت كانت أشنيات وطحالب ترحب بها، ناشرة ضياءً خضراء جميلة. وأخيرا استقرت اللؤلؤة في عمق الرمال بين نباتات السرخس. في الأعلى بدا سطح الماء كمرآةٍ خضراء. وفي المكان الذي استقرت فيه اللؤلؤة من قاع البحر، أثار سلطعون، كان يعدو سحابةً صغيرة من رمال، وحين كنّ هذا السلطعون، اختفت اللؤلؤة.

أما موسيقى اللؤلؤة فتحولت إلى هسهسة، ما برحت أن تلاشت.

من إصدارات الدار الأدبية

موليير/ مسرح	ترجمة: يوسف الجهماني
الشعر النبطي في حوران	علي المصري
كاليجولا/ مسرحية	ترجمة: يوسف الجهماني
نرسيس وغولدموند/ رواية	هرمان هسه
روسهالده/ رواية	هرمان هسه
ذئب السهوب/ رواية	هرمان هسه
غرترود/ رواية	هرمان هسه
تحت الدولاب/ رواية	هرمان هسه
تعاويذ/ رواية	عقبة زيدان
الخيبة/ رواية	بولينا داشكوفا
أيام الثلج الأحمر/ رواية	د. فواز الأزكي
الحب الكبير/ رواية	عيسى الصيداوي
ثغر حلم/ قصص	يوسف الجهماني
عشتار والمولودة/ قصص	فاديا سعد
كيف الحال/ شعر	ربيعة الجلطي
عطر اللوز/ شعر	يوسف الصياصنة
بكاء النوافير/ شعر	منصور الزعبي
أزهار الغضب/ خواطر	منصور الزعبي

من إصدارات الدار

موسوعة الحرب الالكترونية	الجنرال أ. بالي
على دروب الثقافة الديمقراطية	بوعلي ياسين
قراصنة وأباطرة	نوعام تشومسكي
المعري والشيرازي	علي خلوف
حوران عبر التاريخ	د. خليل المقداد
حرية الآخر	جاد الكريم الجباعي
القرآن بين التفسير والتأويل	أنور خلوف
ما وراء الحجاب	فاطمة المرنيسي
خلفاء بلا خلافة	أ.أ. إغناتنكو
حزب الرفاه . أرياكان	يوسف الجهماني
حوارات في قضايا المرأة	نبيل فياض
انهيار الماركسية	محمد سيد رصاص
الصراع السياسي في تركيا	ف.ي. دانيلوف
خبايا الانهيار	ف.إ. شيرونين
أخلاقيات المعاشرة	غ.ب. بوتيليكو
أخلاقيات السعادة	كيريل نيشيف
الزلازل	د. فواز الأزكي
مفهوم الإرهاب في القانون الدولي	ثامر الجهماني

سيصدر عن الدار

تركيا وإسرائيل	يوسف الجهماني
تركيا وسوريا	يوسف الجهماني وسالار أوسي
ثرثرة فوق المياه	يوسف الجهماني
أوج آلان (تركيا والأكراد)	يوسف الجهماني
نحو منظور عقلي للإسلام	أنور خلوف
وترحل الجراح / شعر	منصور الزعبي
بيتر كامينتزيند / رواية	هرمان هسه
اللؤلؤة / رواية	جون شتاينبك
الياس مرقص / حوار العمر	جاد الكريم الجباعي
الكرسي / قصص	عزيز نيسن
رسائل الرقص / شعر	مالك الناطور





«في المدينة، كانوا يتناقلون قصة اللؤلؤة العظيمة. كيف وُجدَت، وكيف فُقدَت ثانية. كانوا يروون حكاية كينو، صياد اللؤلؤ، وزوجته جوانا وطفله كوواتيتو. وبما أن القصة كانت تروى على هذا المنوال عادة، فقد حفرت جذورا عميقة في عقل كل إنسان في المدينة. وبما أن الجميع كانوا يعيدون حَبْكَ القصص التي سكنتْ في قلوب الناس، فقد كانت هناك أشياء جيدة وأخرى سيئة، وأشياء سوداء وبيضاء، إنها أشياء طيبة وشيطانية، ولا شيء بين بين، كما في كل زمان ومكان.

وإذا كانت هذه الحكاية تنضح بالمُثل، فقد يأخذ منها كل واحد مغزىً أخلاقياً خاصاً به، ويعيد قراءة حياته الخاصة، انطلاقاً منها، قالوا في البلدة أن....».



دار حوران للطباعة و النشر و التوزيع

سوريا - دمشق ص.ب 32105

6713079

